

الْعَلَامُ مِنَ الْأَدَاءِ وَالشَّجَرَاءِ



# لِسِلْكَانُ الدِّينِ ابْنُ الْحَسِيبِ عَصْرُهُ، بَيْتُهُ، حَيَاةُهُ وَآثَارُهُ

شَأْلِيفُ  
أَمْمَادِ حَسِيبٍ بْنِ سُبْحَانِ

دَارُ الْكِتَابِ الْعَالَمِيَّةِ

بِجِرْدُوتِ - بِسْتَانِ

العلام من الآباء والشعراء

لِسْلَانُ الدِّينِ الْبَرِّ الْحَسِيبُ  
عَصْرُهُ، بُيُّونُهُ، حَيَاةُهُ وَآثَارُهُ

تأليف  
أحمد حسن بن سبع

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



جَمِيعُ الْمَعْرُوفِ مُخْفَوْظَةٌ  
**وَلَمْرالكتُب العَلَمِيَّة**  
 بيروت - لبنان

الطبعة الأولى  
 ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

**وَلَمْرالكتُب العَلَمِيَّة** بيروت - Lebanon

ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تكش: Nasher 41245 Le

هاتف: ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٨٦٨٠٥١ - ٦٠٢١٢٢ - ٨٥٥٧٣

فاكس: ٦٠٢١٢٢ - ٤٧٨١٢٧٢ - ١٢١٢ / ٤٧٨١٢٧٢ - ٩٦١ / ٦٠٢١٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

تشكل هذه الدراسة، حلقة من سلسلة، وقد تناولت فيها شخصية من شخصيات بلاد الأندلس من عصورها المتأخرة، أعني في القرن الثامن الهجري، حيث تعرضت الممالك الإسلامية، في تلك الفترة إلى هجمات الفرنجة الذين بدأوا يستردون المدن، الواحدة تلو الأخرى، فشهد الأدب حالة من الجمود والمراءحة حيناً، والتقهقر حيناً آخر، إلا أن الدارسين، كما تبين لي، قد أهملوا دراسة لسان الدين ابن الخطيب بشكل عام وشامل، ومن جميع جوانب شخصيته: الأدبية والفكرية والسياسية والدينية، وإن تعرض البعض إليه، فلم يتجاوز الإلمام السريع، أو الإشارة التي لا تغنى ولا تسمى، ولا بد لي من أن أشير، بأن أهم ما ألف حوله كتاب «ابن الخطيب من خلال كتبه» في سيرته، لمحمد بن أبي بكر التطاواني، وكتاب آخر بعنوان «الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب»

لعبد العزيز بن عبد الله . من هنا كانت الحاجة إلى كتاب ميسر  
وموجز ، يكون عوناً للدارس والباحث والطالب ، ولا أدعى أنني  
حققت الغرض المطلوب ، ولكني حاولت جهدي ، وأرجو أن يلقى  
هذا العمل قبولاً واستحساناً ويكون عند حسن ظن القراء الكرام ،  
وإن كنت قد فصرت أو زلت ، فالمعذرة ، وأأمل أن يوفقني الله إلى  
ما يحبه ويرضاه ، لأنتمكن من بلوغ المرام وتحقيق ما يخدم العلم  
وأهله .

أحمد حسن بسج  
بيروت ٢٣ أيار ١٩٩٣  
غرة ذي الحجة ١٤١٣

## الفصل الأول

### البيئة والعصر الأندلسيان

#### صفة الأندلس:

يكتفف الفموض اسم «الأندلس» من حيث أصله ومشوّه، وأغلبظن أنه مشتق من «فنداليشيا» نسبة إلى القبيلة الجرمانية «فندال».

وقد أطلق العرب هذه التسمية على شبه جزيرة إيبيريا بعد فتحها، وتقع بلاد الأندلس في جنوب غرب أوروبا يحدها البحر الأبيض المتوسط جنوباً، والمحيط الأطلسي غرباً، وفرنسا شمالاً، والبحر الأبيض المتوسط شرقاً.

وتتميز طبيعة البلاد بوعورة مسالكها وتشعب وديانها لكثره الجبال فيها، وتخترق هذه الجبال عدة أنهار، منها نهر تاجه ونهر دويرة، ونهر الوادي الكبير، وقد قامت على هذه الأنهار مدن كبرى

وخصوصاً على الوادي الكبير نسأت قرطبة وإشبيلية وقرمونة.

وقد تحدث المؤرخون كثيراً حول صفة الأندلس وأهلها، من ذلك ما ذكره<sup>(١)</sup> لسان الدين ابن الخطيب: "... وقد خصها الله من الري، وغدق السقيا، ولذادة الأقوات، وفراحة الحيوان، ودور العبياء، وكثرة الفواكه، وبحار العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وبنية السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفاد الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار، بما حرمه الكثير من الأقطار".

قال الوزير ابن الحمارة في صفة الأندلس:

لاحت قراها بين خضراء أيكها

كالدر بين زبرجد مكون

وقال ابن سفر المريني<sup>(٢)</sup>:

أنهارها فضة والمسك تربتها

والخرز روضتها والدر حصبة

## فتح الأندلس:

كانت إسبانيا والبرتغال تخضع لحكم القوط الغربيين حتى أواخر القرن الأول للهجرة، حيث فتح المسلمون شمالي إفريقيا

(١) تاريخ أعمال الأعلام، ص ٤.

(٢) نفح الطيب ٢٠٩/١.

ومنها توجهت الجيوش إلى الأندلس، فنزل الجيش الأول بقيادة طارق بن زياد سنة ٩٢ للهجرة وكان ذلك بإذن أمير الجيش يومذاك موسى بن نصیر، وتوجل المسلمون بعد ذلك في البلاد، وعاد موسى وطارق إلى المغرب ومنها إلى دمشق، وقد خلف موسى ابنه عبد العزيز واليًا ومقره قرطبة، وتوالى العمال في الأندلس حتى بلغوا عشرين عاماً كانوا يعينون مباشرة بأمر الخليفة في دمشق.

## الأحوال السياسية:

لم تعرف تلك البلاد استقراراً قبل الفتح الإسلامي، بسبب الصراعات على السلطة من جهة، واتساع الهوة بين الحكام والمحكومين من جهة أخرى، وما أن دخل المسلمون البلاد حتى أذعنوا للحكم الجديد. وينقسم حكم المسلمين لإيبريبا إلى عدة عصور تاريخية:

### ١ - عصر الولاة:

ويمتد منذ عام الفتح ليشمل ستة وأربعين عاماً تعاقب فيها على حكم الأندلس ثمانية عشر واليًا كان يعينهم الخليفة في دمشق بمراسيم.

أما علاقة الولاة بعضهم ببعض، فلم تكن تخلو من الاضطراب بسبب الصراع على السلطة، فأيقظوا بتناحرهم العصبية القبلية التي تركت آثارها السيئة على أحوال البلاد عموماً، ومع ذلك يعتبر هذا العصر عصر التأسيس والقوة، إذ استمرت فيه المواجهات العسكرية على الشعور الشمالية ضد الفرنج، حتى وصل المسلمون إلى قلب

فرنسا، ولكنهم لم يطيلوا البقاء لصعوبة الحياة في الجبال.

## ٢ - إمارة قرطبة:

أسسها عبد الرحمن بن معاوية<sup>(١)</sup> ، الذي فرّ من الشام إثر الثورة العباسية وسقوط الدولة الأموية على أيدي الثائرين العباسيين وخلفائهم. دخل عبد الرحمن الأندلس سنة ١٣٨ هـ، واستطاع أن يوحد البلاد تحت إمرته فقضى على والي الأندلس للعباسيين يوسف الفهري واستقل عن الخلافة العباسية ببغداد. وتعاقب من بعده، في إمارة قرطبة ستة من أبنائه وأحفاده، انتهي حكمهم سنة ٣٠٠ هـ، وقد تميزت تلك الفترة بالأمن والعمان والنشاط الاقتصادي إضافة إلى النشاط العسكري على التغور.

خلافة قرطبة: ٣٠٠ هـ - ٤٢٢ هـ.

مع حلول سنة ٣٠٠ هـ، شهدت الدولة ضعفاً واضطراباً وصراعاً على السلطة، حتى تسلم الحكم عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر، فأعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ هـ ولم يلبث أن أخمد الفتنة وأعاد إلى البلاد وحدتها وأمنها. وينتهي حكم الأمويين سنة ٤٢٢ هـ بخلع آخر خلفائهم هشام الثالث.

٣ - ملوك الطوائف: ٤٠٠ هـ - ٥٣٦ هـ.

بدأ التفكك، قبيل انتهاء الحكم الأموي بقليل، وتحديداً عندما

---

(١) هو: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بصفر قريش، ولد في دمشق سنة ١١٣ هـ ومات في قرطبة سنة ١٧٢ هـ، المعروف بالداخل. (الأعلام: ٣/٢٢٨).

توفي الحاجب المنصور ابن أبي عامر، نشأت الصراعات والمنافسات على السلطة بين الأمويين أنفسهم، وبينهم وبين البربر، مما أفسح المجال لكل أمير أن يستقل في مدينته، فنشأت عدة دول وإمارات منها:

دولة بنى هود في سرقسطة.

دولة بنى رزين في شنطورية.

دولة بنى حمود في قرطبة ومالقة.

دولة بنى عامر في بلنسية.

دولة بنى عباد في إشبيلية، وكانت من أعظم الدوليات، وأعظم ملوكها المعتمد ابن عباد الذي عرف بذكائه وميله إلى الأدب والعلم.

دولة بنى جهور في قرطبة، وكان من أشهر وزراء هذه الدولة ابن زيدون الشاعر.

عرف هذا العصر بالضعف والاضطرابات والصراع على السلطة في كل الأنحاء، كما تميز العصر بتقصير الولاية في الدفاع عن ديارهم أمام هجمات الفرنجة، مما دفع أمير المغرب يوسف بن تاشفين إلى التدخل لنصرة المسلمين في الأندلس حيث التقى بجيش «الفونسو» في معركة الزلاقة فهزمه، وتكرر ذلك فعاد ابن تاشفين وخلع ملوك الطوائف جميعاً وأخضع البلاد لسيطرته المباشرة.

#### ٥ - دولة المرابطين: ٤٩٥ هـ - ٥٥٥ هـ.

أسس هذه الدولة يحيى بن إبراهيم الكلالي، في المغرب، على دعائم دينية هدفها الإصلاح وتطبيق أحكام الإسلام، ولهذا السبب، كان يوسف بن تاشفين قد تدخل في الأندلس فأعاد الأمان

إليها وأعادها إلى كتف الخلافة العباسية، ومات مخلفه ابنه علي سنة ٥٠٠ هـ، فواجهه ثورات عدة انتهت بخروج البلاد عن طاعته، فتدخل أمير المغرب الموحدي سنة ٥٥٥ هـ ليعيد الأمان إلى الأندلس.

#### ٦ - دولة الموحدين : ٥٢٤ هـ - ٦٦٧ هـ.

وقد أسسها في المغرب محمد بن تومرت، ثم عبد المؤمن بن علي الذي دخل الأندلس سنة ٥٥٥ هـ بجيشه وقضى على دولة المرابطين، واستمر أبناؤه من بعده على سيرته في جهادهم للفرنجة في الأندلس، حتى عهد الناصر محمد بن يعقوب حيث بدأ الضعف يتسلل إلى جسد الدولة وبدأ سقوط المدن الإسلامية أمام هجمات الفرنجة حتى سقطت إشبيلية آخر مدن الموحدين سنة ١٢٣٩ هـ.

#### ٧ - دولة بنو الأحمر : ٦٣٥ هـ - ٨٩٨ هـ.

يتسبّب بنو الأحمر إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ويعرفون ببني نصر، وكانتوا يقيمون في حصن من حصون قرطبة وهو حصن «أرغونة»، وقد استطاع محمد بن يوسف بن نصر سنة ٦٣٥ هـ أن يضم إلى مملكته خمس مدن هي: بسطة، ووادي آش، وشيرش، ومالقة، وجيان وفي سنة ٦٣٦ هـ استولى على مدينة غرناطة واتخذها عاصمة لدولته، ثم ضم إليها ألميرية، حتى صار محطة أمام الأندلسيين ضدّ أهل الكفر من جميع الفئات.

أقام بنو الأحمر مملكة غرناطة، في وقت كانت النصارى يزدادون قوّة يوماً بعد يوم وينزلون الضربات بال المسلمين تدريجياً وينتزعون منهم المواقع الواحد تلو الآخر طيلة قرنين ونصف من الزمان انتهت بسقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ.

تعاقب على حكم هذه الدولة عشرون ملكاً من أحفاد محمد بن يوسف بن نصر، وتميزت العهود المختلفة لهؤلاء الملوك بصراعهم الدائم مع الأعداء، وقد اعتبرها النصارى صراعات دينية مقدسة استعملوا فيها ما أوتوا من القوى وقد شجعهم على ذلك الاضطرابات الداخلية والتنافس على السلطة حتى بين الأب وابنه أو أخيه، كما حدث بين أبي الحسن علي بن سعد وابنه أبي عبد الله محمد ثم بين هذا الأخير وعمه المعروف بالزغل، والذي حدث أن السلطان أبي الحسن خرج ليلاتي أعداءه بقيادة ملك قشتالة فرديناند، فعاد وقد بايع أهل غرناطة ابنه محمداً، ثم يؤسر محمد فيعود الوالد إلى السلطة بعد أن كان لا جنا في مدينة بسطة، ويعود محمد من أسره، فيختلف الناس وينشب صراع دام بين الوالد والابن إلى أن تنازل الوالد إلى أخيه، فثار أبو عبد الله محمد، وكان في المرية فهاجمه عمه فيها ففر هارباً لا جناً عند الأعداء مستعيناً بفرديناند وإيزابيلا، فاستجمعت قواه وعاد إلى غرناطة ليوجع الصراع الدموي من جديد، فاستغل النصارى الفرصة وبدأوا هجماتهم العنيفة، فواجهها المسلمون بقيادة الزغل، ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً، فرأى أن يهادن النصارى المهاجمين الذين ساعدهم ووطأ لهم ابن أخيه الخائن، فتراجع عن عدة مواقع وسلمها للنصارى مكرهاً، حتى أحكم النصارى حصار غرناطة وطال الحصار وقاوم أهل غرناطة، ولم يروا بعد طول المعاناة إلا أن يسلعوا كارهين بشروط لم يحترموا العدو، وخرج أبو عبد الله الشقي من قصر الحمراء باكياً والتحق بالبيته الفارين فقالت له أمه: «ابك مثل النساء ملكاً مضاععاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

و عبر أبو عبد الله إلى المغرب و نزل مدينة فاس واستقر فيها حتى مات سنة ٩٤٠ هـ. وبسقوط غرناطة، انتهت حضارة المسلمين وجودهم في بلاد فتحوها وعمروها وأقاموا فيها حوالي ثمانية قرون من الزمان.

## نظام الحكم في الأندلس:

كان الخليفة أو الأمير، هو الحاكم المطلق، يرجعون إليه في كافة الشؤون، فإذا كان قوياً استقامت أمور مملكته، وإن كان غير ذلك فكثيراً ما كانت تندلع الاضطرابات، وقد عرفت بلاد الأندلس خلفاء وأمراء أقوياء يرجع لهم الفضل في تأسيس دولة قوية عاشت قرونًا عدة، وقد مهدوا لنشوء حضارة زاهرة، من هؤلاء عبد الرحمن الداخل والناصر والمنصور ابن أبي عامر، ثم في العهود التالية شهدت فترات استقرار نشأت فيها نهضة شاملة، أيام حكم الطوائف والموحدين وفي مملكة غرناطة بالرغم مما كان يحدث من صراعات وفتن.

أما الإدارة فعرفت تنظيماً راقياً، وكان الحاجب يمثل أعلى المناصب الإدارية وهو بمنزلة رئيس الوزراء اليوم، وكان هذا المنصب مداراً لاهتمام الطامحين ولطالما تنافسوا وتحاسدوا للوصول إلى رتبة الحجابة.

ومن الحجابة، من لعب دوراً خطيراً في سياسة البلاد، وأعني الحاجب المنصور ابن أبي عامر الذي عزل الخليفة وتفرد بالسلطة واستطاع أن يحكم البلاد ويشيع الأمن ويوافق على أحسن

ما يكون.

ومن الإدارات الأخرى التي اهتم بها الحكام، نظراً لما تشكله على صعيد النظام العام، رتبة الكتابة، ومنها كتابة الرسائل وعلى رأسها أديب، وكتابة الزمام وعلى رأسها كاتب حسابات. ومن الدواوين أيضاً؛ دائرة الخارج وصاحبها أعلى من الوزير، كذلك القضاء، ولعل وظيفته الأهم لعلاقتها بالدين وكان القاضي يختار من الفقهاء العلماء ويتمتع بصلاحيات واسعة. كذلك الشرطة، ويتمتع أصحابها بصلاحية القتل لمن يستحق دون الرجوع إلى الأمير، ومن الدواوين الهامة: الحسبة وتعني بمراقبة الأسعار.

## الحياة الاجتماعية:

تألف الشعب الأندلسي من عدة عناصر أهمها: العرب، والبربر، والموالي، والمولدون، وأهل الذمة من النصارى واليهود. فالعرب شكلوا الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وتعاملوا مع العناصر الأخرى بشيء من الاحتقار، أما البربر فهم من الأفارقة الشماليين الذين تشكل منهم جيش الفتح أولاً ثم استوطنوا بعد ذلك على دفعات في بلاد الأندلس. أما الموالي، فقد ساهموا في توطيد الحكم الأموي عند تأسيس الدولة أيام الداخل. والمولدون هم الجيل الذي نشأ بعد الفتح من خلال اندماج العناصر في البلاد المفتوحة، وصاروا فيما بعد يؤلفون السواد الأعظم من الشعب الأندلسي. أما أهل الذمة، فهم النصارى واليهود من أهل البلاد، والذين حافظوا على سماتهم الدينية وأذعنوا للحكم الإسلامي.

على كل حال، فإن هذه العناصر المختلفة، اندمجت، وتضافرت، لتؤلف شعباً واحداً له عاداته وتقاليده التي تمسك بها وحافظ عليها واعتز بها، من ذلك حبهم للنظافة، واعتمادهم على أنفسهم، وحسن تدبيرهم، وبغضهم للتسول والإذلال. أما أزياؤهم فالأكثرية منهم لم تكن تضع العمائم، إلا الفقهاء والقضاة، بينما تزيّا السلاطين والجنود بزي النصارى<sup>(١)</sup>، ومن أهم ما لبسوا: الطيلسان للعوام والخواص، أما غفائر الصوف، فوضعوها حمراً وخضراء، أما الصفر فكانت مخصوصة لليهود الذين منعت عنهم العمائم. والجدير بالذكر أن البياض كان لباسهم في الأحزان.

للمرأة أزياؤها أيضاً، فهي أنيقة، تهتم بلباسها وزيتها وحليها، ولم تخل مع ذلك عن الحجاب، أما الإماماء فلم يتقيدين به. أما العلاقة بين المرأة والرجل، فإنها أي المرأة، كانت تتتمتع باحترام الرجال وكانت لها سلطة نافذة خصوصاً في بيوت النساء حيث تتعدد الزوجات وتكثر الإماماء، فكن لذلك يتحاسدن، وتغزو الأقرب إلى قلب الأمير. ومن مظاهر تدخل النساء في شؤون الحكم أن بعض النساء الإسبانيات كن يتاجسسن على الحكام سراً. مما عاد بأوخر العواقب على الدولة.

## الأحوال الاقتصادية وتأثيرها:

قد أشرنا آنفاً إلى طبيعة بلاد الأندلس وما فيها من ثروات

---

(١) نفع الطيب ٢٢٠ / ١

خصوصاً المياه مما أفسح المجال أمام نهضة زراعية لا يأس بها. وذلك فضلاً عن الثروات الأخرى كالمعادن التي استثمروها وقامت عليها صناعات متطرفة، كصناعة الملابس والمنسوجات، والزجاج والأواني المعدنية، والأسلحة وغير ذلك كالآلات الفاخرة وغيره من مستلزمات الحياة، وهكذا قامت حضارة راقية في كافة مدن الأندلس تجلت في مظاهر كثيرة منها تعليقهم بالغناء والموسيقى، فتهافت الآثرياء على امتلاك الجواري الحسان اللواتي كن يجدن العزف والغناء، وقد تدفق أهل هذه الصنعة من الشرق، من أمثال «فضل» و«علم» المغنتين قدمتا من المدينة أيام عبد الرحمن الداخل، ثم زرياب الذي وطد لقيام مذهب جديد في العزف والغناء أساسه العزف الشرقي واهتم الأندلسيون بهذا الفن إلى حد وضع المؤلفات، فوضع يحيى المرسي كتاباً سمّاه «الأغاني الأندلسية»، ومن المدن التي اشتهرت بالغناء: إشبيلية.

وكما انعكس الثراء على الحياة العامة والميل إلى حياة الترف والاستغراق في الملاهي والملذات، كذلك ظهر أثر الغنى في العمارة والتشييد، فتنافس الناس في بناء الدور الفخمة والحدائق العامرة الزاهرة، وكذلك الحكام فأنشأوا المساجد والمدارس، والجسور والقصور، ويذكر هنا عبد الرحمن الداخل، والذين جاؤوا من بعده، والمنصور ابن أبي عامر بنى مدينة متكاملة هي الزاهرة على غرار مدينة الزهراء، وكذلك فعل المتأخرؤن في العهود اللاحقة وصولاً إلى عهد بنى الأحمر ومن أعظم ما يسجل لهم في مجال العمارة قصرهم الكبير المعروف بالحراء، الذي ما زال قائماً حتى اليوم، في غرناطة، وهو يشهد على عظمة حضارة ثمانية قرون.

## الحال الثقافية:

أناحت عصور القوة في طور تأسيس الدولة وما بعد ذلك، نهضة علمية ونشاطاً ثقافياً، وحركة أدبية ساهم فيها الأمراء والخلفاء من قبل، فعبد الرحمن الداخل كان شاعراً، والحكم بن هشام قرّب العلماء والفقهاء، وعبد الرحمن الأوسط شجع العلوم والأداب عموماً لأنّه كان شاعراً فقيهاً، وهكذا لنصل إلى عصر الطوائف فهناك المعتمد ابن عباد، الذي احتضن حركة أدبية لا مثيل لها في عصره وهو نفسه كان فصيحاً شاعراً جواداً وسلطان الموحدين كذلك ضربوا بنصيب في تشجيع أهل العلم، وصولاً إلى دولة بنى الأحمر التي شهدت نشاطاً أدبياً ملحوظاً وقد ساعد على نشوء هذه الحركة التقدم الفرنجي واتساح المواقع الإسلامية، مما اضطر أهل العلم والفنون للجوء إلى غرناطة قبل سقوطها، ولذلك فإنّ الأدب في هذا العصر يغلب عليه طابع الاستغاثة واستهانة الهمم وخصوصاً سلطان المغرب طلباً للنجدة والوقوف أمام الزحف الأوروبي، وكثيراً ما كانت تذهب صرخات الشعراء وغيرهم سدى فلا من يسمع ولا من يلبي. وانصرف جماعة من الشعراء والكتاب لتدوين الهزائم والانكسارات الكثيرة أمام الأعداء، كما أن ذلك الأدب يسجل مظاهر الحياة اللاهية، وصنوف الترف والملذات التي غرق فيها أهل البلاد وخلوا الساحة للمتربيصين بالإسلام شرّاً، ومن أتعجب ما يروى في هذا السبيل خروج أهل بلنسية بكامل زيتهم ليصدوا العدو، فيقعون في هزيمة شنعاء في موقعة «بطرنة»،

ويقول<sup>(١)</sup> أحد شعرائهم في ذلك:  
 لبسوا للحديد إلى الوعى ولبستم  
 حلل الحرير عليكم ألوانا  
 ما كان أقبحهم وأحسنكم بها  
 لولم يكن بطرنة ما كانا

ومن أهم الفنون التي استحدثها الأندلسيون في هذا العصر الموسحات والأزجال، ويفذكر هنا أبو بكر بن زهر. أما أكبر شعراء العصر وكتابهم فالوزير لسان الدين ابن الخطيب وزير محمد الخامس ابن الأحمر، كما عُرف من الكتاب تلميذ ابن الخطيب ابن زمرك، ومن المفيد أن نذكر بالدور الكبير الذي قام به كل من محمد الثاني وأبو الحجاج يوسف الأول وابنه محمد الخامس، في تشجيع الآداب والفنون والعلم.

وإذا كان الشعر في العصور السابقة قد عرف التعديدية في الأغراض من هجاء ومدح ووصف وغزل ورثاء وغير ذلك، فإنه في هذا العصر قد خافت دوائره، نظراً للظروف السياسية والعسكرية المضطربة؛ فالرثاء تحول من رثاء لميت إلى رثاء جماعي ولكن ليس للبشر إنما للأمجاد الزائلة وللمدن التي تساقطت الواحدة تلو الأخرى في أيدي النصارى.

وكانت بدايات هذا النوع من الرثاء عند سقوط طليطلة لا وهي أول مدينة يستعيدها النصارى سنة ٤٧٨ هـ، فكان سقوطها صفعة

(١) الأدب العربي في الأندلس عتيق ١٢٩.

عنيفة هزّت المشاعر وألهبتها فرثاها بعضهم<sup>(١)</sup> قائلاً:  
 لتكليك كيف تتسم التغور  
 سروراً بعد ما بنت ثغور؟  
 أما وأبي مصاب هذ منه  
 ثير الدين فاتصل الثبور  
 طليطلة أباح الكفر منها  
 حماها... إن ذا نبا كبير  
 ألم تك معقلأ للدين صعباً  
 فذله كما شاء القدير؟  
 في أسفاه يا أسفاه حزناً  
 يكرر ما انكررت الدهور؟

وهذا هو ابن خفاجة الأندلسي يرثي بلنسية عند سقوطها سنة  
 ٤٨٨ هـ:

عاثت بساحتك العدى يا دار  
 ومحماً محسنك البلى والنار  
 فإذا تردد في جنابك ناظر  
 طال اعتبارٍ فيك واستعبار  
 والمدينة نفسها استردها المسلمون في عهد المرابطين، ولكن  
 النصارى احتلوها ثانية سنة ٦٣٦ هـ فرثاها أبو المطرف بن عميرة  
 المخزومي:

(١) الآيات أوردها د. عتيق في «الأدب العربي في الأندلس»: ٣٢١.

أَمِنَ بَعْدَ رُزْءٍ فِي بَانِسِيَّةِ ثَوَى  
بِأَحْنَاثِنَا كَالنَّارِ مُضْرِمَةِ الْوَقْدِ

يرجى أناسُ جنةَ من مصائبِ  
تعاونٍ فيهم بالمحققةِ الملد

أما أروع ما قيل في هذا الفن، فهي قصيدة أبي البقاء ابن صالح بن شريف الرندي، وهي أشجع ما قيل في هذا المجال وهي لم تكن رثاءً لمدينة فحسب، بل رثى فيها الشاعر الأندلس وأمجاد الأندلس، وصور مأساة المسلمين هناك أياً تصوير، وبكاهما وذرف الدموع وكأنه يتكلم بكل لسان. يقول:

لكل شيء إذا مات نقصان  
فلا يغير بطيب العيش إنسان

هي الأمور - كما شاهدتها - دول  
من سرّه زمان ساءته أزمان

وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تَبْقَىُ عَلَىٰ أَحَدٍ  
وَلَا يَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ لَهَا شَانٌ

فجائع الدهر أنواع منوعة  
وللزمان مسرات وأحزان

وهي الجزيرة أمر لا عزاء له  
هوى له أخذ وانهذ ثهلان

فاسأل بنسية: ما شأن مرسية  
وأين شاطبة أم أين حستان

يَا مَنْ لِذْلَةَ قَوْمٍ بَعْدَ عَزَّهُمْ  
 أَحَالَ حَالَهُمْ كَفَرٌ وَطُغْيَانٌ  
 بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ  
 وَالْيَوْمُ هُمْ فِي بَلَادِ الْكَفَرِ عَبْدَانٌ

وقد تميز هذا النوع من المراجي بصدق العاطفة والإكثار من ذكر القوافع والبكاء والتحسر، بالإضافة إلى اعتمادها على أساليب الإنشاء وإكثارها من الاستعارات والتبيهات من أجل إبراز المعاني وتجسيدها لتبدو الصورة ماثلة في ذهن القارئ وفي مخيلته.

كما عرف الشعر التعليمي في العصور المتأخرة، فنظم الأندلسيون الأراجيز والقصائد في الحكمة وفي الفنون التعليمية المختلفة وفي سرد الحوادث التاريخية. ومن الأمثلة على ذلك: ألفية ابن معطي في النحو وألفية ابن مالك، ولسان الدين ابن الخطيب منظومات كثيرة ستدكرها مفصلاً فيما بعد عند الحديث عن مؤلفاته. ومن فنون البديع ما نظمه محمد بن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ. وقد نظموا في التوحيد والفقه والبلاغة والتجويد والنحو والصرف وعلوم الفلك والهندسة والحساب والطب وقد شرح ابن المها طبيب تلميذ لسان الدين ابن الخطيب ألفية ابن سينا في الطب.

ومن الأراجيز التاريخية، ما بدأه يحيى الغزال في القرن الثالث الهجري ثم ابن عبد ربه الذي نظم غزوات الناصر في أرجوزة مطولة. ثم أبو طالب عبد الجبار نظم أرجوزة حتى قيام دولة

المرابطين، وقد نظم ابن الخطيب تاريخ دول الإسلام في أرجوزة سماها «رقم الحل».

وبالرغم مما ذكرناه فإن الشعراء لم يهملوا الأغراض الأدبية الأخرى، كالوصف والمدح والرثاء والتصوف والألغاز وغير ذلك.

يقول أبو الحسن علي بن الجياب<sup>(١)</sup> من الأغراض الصوفية:

هاتِ اسقني صِرفاً بغير مزاج

راحِي التي هي راحتِي وعلاجي

والمشرب الأصْفَى الذي من ذاقه

فقد اهتدى منه بنورِ سراج

أن لا ترى إلا الحقيقة وحدتها

والكل ماضٌ إلى ما لا جَي

وقال مادحاً<sup>(٢)</sup>:

ملكُ إذا صَال يوماً صولة

خلت البسيطة زلزلت زلزالها

فبسببيه وبسيفه نلتَ المنى

واستعجلت أعداؤه آجَالها

فإذا عفَّتْك عَائِنوك تهَلَّلوا

لما رأوا من كفك استهلاكم

(١) أبو الحسن الجياب من أشياخ لسان الدين والأبيات في نفح الطيب

.٤٣٤/٥

(٢) نفح الطيب: ٤٣٦/٨

وقال في الشيب<sup>(١)</sup> :

وقائلة: لم عراك المشيب

وما إن بعهد الصبا من قدم

فقلت لها لم أشب كبيرة

ولكنه الهم نصف الهرم

وفي الرثاء يقول الفقيه أبو عبد الله بن جرزي<sup>(٢)</sup> :

وما لدموع العين فضت كأنها

فواقع زهر والجفون كمانه

وما نفعت رب الجياد كرامه

ولا منعت منه الغني كرامه

وكل تلاق فالفارق أمامه

وكل طلوع فالغروب ملازمه

وفي الوصف قال أبو زكريا يحيى بن هذيل<sup>(٣)</sup> :

نام طفل النبت في حجر النعامى

لاهتزاز الطل في مهد الخزامي

وسما الوسمى أغصان النقا

فهو تلثم أفواه الندامى

(١) نفع الطيب: ٤٤٢/٥.

(٢) نفع الطيب: ٤٤٨/٥. يرثي فيها الشيخ علي بن الجباب.

(٣) نفع الطيب: ٤٨٧/٥، وأبو زكريا من شيوخ ابن الخطيب أيضاً.

كحل الفجر لهم جفن الدجى  
 وغدا في وجنة الصبح لشاما  
 تحسب البدر محيانا ثميل  
 قد سقته راحه الصبح مداما  
 حوله الزهر كؤوس قد غدت  
 مسكة الليل عليهم ختاما...

وفي مدح النبي ﷺ يقول أبو سعيد فرج بن لب  
 (٧٠١ - ٧٨٣ هـ)<sup>(١)</sup> :

في افوز من فاز في طيبة  
 بلثم المغاني جداراً جداراً  
 وألصق خداً على تربيها  
 وأكمل حجابها واعتمارا  
 وأهدى السلام لخير الأنام  
 على حين وافى عليه مزارا...

وفي وصف الطبيعة يقول ابن مرج الكحل المتوفى سنة  
 ٦٣٤ هـ<sup>(٢)</sup> :

طفل المساء وللنسيم تضيء  
 والأنس يجمع شملنا ويجمع

(١) نفع الطيب: ٥٠٩/٥.

(٢) نفع الطيب: ٥٥/٥ و٥٣.

والزهـر يضـحـك من بـقـاء غـمـامـة  
ريـعـت شـيـئـم سـيـوف بـرـقـ تـلـمع  
وـالـنـهـرـ مـنـ طـرـبـ يـصـفـقـ مـوـجـهـ  
وـالـغـصـنـ مـوـجـهـ يـرـقـصـ وـالـحـمـامـةـ تـسـجـعـ  
وـفـيـ الغـزـلـ يـقـولـ صـفـوانـ بـنـ إـدـرـيسـ التـجـيـبيـ المـرـسيـ أـبـوـ بـحـرـ  
(٥٦٠ - ٥٩٨ هـ) <sup>(١)</sup>:

يـاـ قـمـرـأـ مـطـلـعـهـ أـضـلـعـيـ  
لـهـ سـوـادـ الـقـلـبـ فـيـهـاـ غـمـقـ  
وـرـبـمـاـ اـسـتـوـقـدـ نـارـ الـهـوـيـ  
فـنـابـ فـيـهـاـ لـوـنـهـاـ عـنـ شـفـقـ  
مـلـكـتـيـ فـيـ دـوـلـةـ مـنـ صـبـأـ  
وـصـدـتـيـ فـيـ شـرـكـ مـنـ حـدـقـ  
عـنـدـيـ مـنـ حـثـكـ مـاـلـوـ سـرـثـ  
فـيـ الـبـحـرـ مـنـ شـعـلـةـ لـاحـتـرـقـ

---

(١) نـفـعـ الطـيـبـ: ٦٧، ٦٢ / ٥.

# الفصل الثاني

## لسان الدين ابن الخطيب

### حياته وسيرته

(٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ)

(١٣١٣ م - ١٣٧٤ م)

هو<sup>(١)</sup> - كما عرف بنفسه - محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحد السلماني، قرطبي الأصل، ثم طليطلية، ثم لوشيه، ثم غرناطيه، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقة بلسان الدين. ويتحدث عن أوليته قائلاً<sup>(٢)</sup>: «يعرف بيتنا في القديم بوزير، ثم حدثنا بلوحةبني الخطيب، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيجيسي بن يجيسي الليثي وأمثاله عند وقعة الربض الشهيرة، إلى طليطلة، ثم تسللوا محميين على وطنهم قبل

---

(١) نفع الطيب: ٩/٥.

(٢) نفع الطيب: ١٠/٥. نقلًا عن «الإحاطة».

استيلاء الطاغية عليه، فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبلاء تضمن منهم ذكر خلق، كعبد الرحمن قاضي كورة باعة، وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها، المقربون اسمه بالتسويد عند أهلها، جارياً مجرى التسمية بالمركب في تاريخ الغافقي وغيره وسكن عقبهم بها، وسكن بعضهم منتقريير ملوكين إليها مختطبين جبل التحصن والمنعة فنسبوا إليها.

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل وزكاء الطعمة، أوقفني الوزير أبو الحكم بن محمد المتقريري – وهو بقية هذا البيت وإخباريه – على جدار برج ببعض ربي أملاكتنا بلوشة نطؤه الطريق المارة من غرناطة إلى إشبيلية، وقال: كان جدك يذيع بهذا المكان فصولاً من العلم، ويجهز بتلاوة القرآن، فيستوقف الرفاق المدخلة الخين إلى نعمته، والخشوع إلى صدقه، فتعرس رحالها لصدق جداره، وتربع ظهرها موهناً إلى أن يأتي على ورده. وتوفي وقد أصيب بأهله وحرمه عندما تغلب العدو على بلده عنوة في خبر طويل. وفقت على مكتوبات من المتكفل على الله محمد بن يوسف بن هود أمير المسلمين بالأندلس في غرض إعانته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة بما يدل على نباهته قدماً ويفيد إثارة عبرة، واستقالة عشرة. وتختلف ولده عبد الله جارياً مجرأه في التجدد والتمعش من حر الشب، والتزي بالانقباض، والتحلي بالتزاهة، إلى أن توفي وتختلف ولده سعيداً جدنا الأقرب، وكان صدراً حيراً مستولياً على خلال حيدة، من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب نافس جيرته بنى الطنجالي الهاشميين، وتحول إلى غرناطة، عندما شعر بعملهم على الثورة، واستطلاعهم إلى التزوة التي خضدت الشوكة، واستأصلت منهم الشافة، وصاهر بها

الأعيان من بنى أضحيى بن عبد اللطيف الهمداني أشراف جند حصن  
الداخلين إلى الجزيرة في طبعة بلع بن بشر القشيري وحقوه من جراء  
منافسيه لما جاهروا السلطان بالخلعان اعتقال اعتبه السلطان بعده،  
وأحظاه على تفتته، وولاه الأعمال النبوية والخطط الرفيعة». وتوفي  
جده سنة ٦٨٣ هـ، ونشأ والده في كتف أمه مترقاً متعمماً، ثم انتقل إلى  
كوشة بلد سلفه مخصوصاً بلقب الوزارة، إلى أن قصدها السلطان أبو  
الوليد متخطياً إلى الحضرة هاوياً إلى ملك البيضة، فعُضد أمره،  
وأدخله بلده. وقد فقد في الكائنة العظمى بطریف سنة ٧٤١ هـ، مع  
ولد له آخر غير لسان الدين. وقد كان والده «ذمر عزم»، ورجل رجاء  
وأزم، نروق أنوار خلاله الباهرة، وتنضيء مجالس الملوك من صورته  
الباطنة والظاهرة، ذكاء يتقد، وطلقة يمحض نورها الفرقد، وكانت  
له في الأدب فريضة، وفي النادرة العذبة منادح عريضة، تكلمت يوماً  
بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتاً من شعره ورقاعاً من  
إنشائي فتهلل، وما برح أن ارتجل<sup>(١)</sup>:

### الطب والشعر والكتاب

سماتنا في بنى النجابة  
هن ثلاثة مبلغات  
مراتباً بعضها الحجابه

ومن شعره:

عليك بالصمت فكم ناطق  
كلامه أدى إلى كلام

(١) نفع الطيب: ١٦/٥. عن لسان الدين في كتابه «الإحاطة».

إن لسان الماء أهلى إلى  
غرتة والله من خصمه  
يسرى صغير الجرم مستضعفاً  
و جرمته أكبر من جرمته

وقد رثاه لسان الدين بقصيدة منها<sup>(١)</sup> :  
سهام المايا لا تطيش ولا تخطي  
وللدهر كفٌ تستردَّ الذي تعطى  
تساوي على ورد الروى كل وارِد  
فلم يغن رب السيف عن ربة القرطِ

### مولده ونشأته:

ولد لسان الدين ونشأ في غرناطة، وحاز المراتب العليا فقلده السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الوزارة وكان صغير السن فتياً سنة ٧٣٣ هـ، واستعمله في السفارة إلى الملوك، واستنابه بدار ملكه ورمى إليه بخاته وسيفه، واتتمنه على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمته، ومعقل امتناعه، ولما مات السلطان وتسلّم ابنه محمد «الغني بالله» سار الولد على طريقة الوالد وعظم مكانة ابن الخطيب إلى أن تغلب إسماعيل على أخيه محمد، واستولى على الأمر

(١) نفع الطيب: ١٨/٥.

سنة ٧٦٠ هـ، فألقى القبض على لسان الدين، وصادر ممتلكاته، أما السلطان محمد أبو عبد الله، فكان خارج القصر والتجأ إلى وادي أش ومنها إلى المغرب، فسعى مع سلطان المغرب أبي سالم المريني الذي تشفع له وسهل خروجه من معتقله في الأندلس وأتى به إلى المغرب بصحبة أبي القاسم التلمساني مبعوثه إليه، وعند وصوله، أكرّم السلطان المغربي مثواه، وأرغد نُزْله، وأرغد عيش ابن الخطيب في الحرية والإقطاع، ثم استأنف السلطان للتجوال في جهات مراكش، وعندما مر بسلا إثر قوله من سفره، دخل مقبرة الملوك بشالة، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن، وأنشد قصيدة على روی الراء يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بغرناطة، مطلعها:

إن بـان منـزلـه وـشـطـتـتـ دـارـه

قـامـتـ مقـامـ عـيـانـهـ أـخـبـارـهـ

قـسـمـ زـمـانـكـ عـبـرـةـ أوـ عـبـرـةـ

هـذـيـ ثـرـاهـ وـهـذـهـ آـثـارـهـ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة. فشققاوه، واستقر هو بسلا متبتداً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة، ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ٧٦٣ هـ، فاستقدم ابن الخطيب من سلا بالمغرب، ورده إلى منزلته، وفي سنة ٧٦٤ هـ، دخلت الغيرة قلب لسان الدين من عثمان بن يحيى مقدم بطانة السلطان بالأندلس، فأشار على السلطان أن يتخلص من عثمان فسجنه، وهكذا خلا الجو لابن الخطيب، وانفرد بالخل والعقد وغشي بابه الخاصة وال العامة، وقد تفتئن أعداؤه في السعایات ضده، حتى تغير الجو بينهما، فاتصل بالسلطان عبد العزيز بن علي المريني في تلمسان،

وأخبره بالرغبة في الالتحاق به والإقامة في كنفه، وهكذا غادر الأندلس سرًا، ووصل إلى تلمسان سنة 773 هـ، فأكرمه السلطان عبد العزيز، وأرسل إلى غرناطة بطلب أهله وولده فجاؤوه مكرمين واستقر بفاس واشتري ضياعاً. ولم يلبث عبد العزيز أن مات، وخلفه ابنه السعيد بالله، وخلع هذا، فتولى المغرب السلطان المستنصر أحمد بن إبراهيم<sup>(١)</sup> وقد ساعده «الغني بالله» صاحب غرناطة مشترطاً عليه شروطاً منها أن يسلمه الوزير ابن الخطيب، فقبض عليه المستنصر وكتب بذلك إلى «الغني بالله»، فارسل الملك الغرناطي هذا وزيره ابن زمرك إلى فاس، حيث انعقد مجلس للحاكمية لحاكمة ابن الخطيب الذي أحضر فوجئت إليه تهمة الزندقة، وسلوك مذاهب الفلاسفة، واستحصل المجتمعون على فتوى بعض الفقهاء بقتله، وأعيد إلى سجنه، ولكن سرعان ما أرسلوا إليه بعض الأرذال الذين جاؤوا مع ابن زمرك، فدخلوا عليه في سجنه ليلاً وختقوه ثم دفن في مقبرة «باب المحروق» بفاس، ومن المؤسف أنه في صبيحة اليوم التالي، وجدت جشه فوق القبر، وقد تعرضت للإحراق فأعيد دفنه، وعد ذلك من صنع سليمان بن داود وزير السلطان أبي العباس المغربي في طنجة، وكان<sup>(٢)</sup> سليمان يحمل في نفسه حقداً دفيناً وقديماً لابن الخطيب. وكانت نهاية لسان الدين سنة 776 هـ. وما قاله<sup>(٣)</sup> في سجنه يتوقع الموت:

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي سالم. نفع الطيب: ١٧٧/٥.

(٢) نفع الطيب: ١١٠/٥ - ١١١.

(٣) نفع الطيب: ١١١/٥.

بُعْدَنَا وَإِنْ جَاءَتْنَا الْبَيْوَثُ  
 وَجْنَا بِوْعَظِ وَنَحْنُ ضُمُوتُ  
 وَأَنْفَاسَنَا سَكَنَتْ دَفْعَةً  
 كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهُ الْقَنُوتُ  
 وَكَنَا عَظَامًا فَصَرَنَا عَظَامًا  
 وَكَنَا نَقوٰتُ فَهَا نَحْنُ قَوٰتُ  
 وَكَنَا شَمْسَوْسَ سَمَاءِ الْعَلَاءِ  
 غَرَبَنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السَّمُوتُ  
 فَكَمْ جَذَلْتَ ذَا الْخَسَامِ الظَّبَىِ  
 وَذُو الْبَخْتِ كَمْ جَدَلْتَهُ الْبَخْوتُ

لقب ابن الخطيب بذوي الوزارتين: القلم والسيف، ويقال له أيضاً، ذو الميتين، ذو القبرين، ذو العمررين، لأنه كان يشتغل بالتأليف والكتابة ليلاً، ويقوم على تدبير أمور المملكة نهاراً، ذلك أنه كان مصاباً بداء الأرق، لا ينام من الليل إلا التزير اليسير، وقد قال في كتابه «الوصول لحفظ الصحة في الفصول»: «العجب مني - مع تأليفني لهذا الكتاب، الذي لم يؤلف مثله في الطب، وعملني ذلك - لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي»<sup>(١)</sup>.

ويروي<sup>(٢)</sup> المقري عن ابن حجر عن بعض الأعيان، أن ابن الأهر وجهه إلى ملك الإفرنج في رسالة، فلما أراد الرجوع، أخرج له

(١) نفع الطيب: ٥/٨٠.

(٢) نفع الطيب: ٥/١١٢.

رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم ونشر، فلما قرأها قال له: «مثلك هذا كان ينبغي أن لا يُقتل» ثم بكى حتى بلَ ثيابه.

أما مكانته وفضله، فلا ينكرهما أحد، حتى الأعداء، فإن الجميع يعترف له ولأسرته بالعلم والفضل. قال عنه سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس رحمه الله في كتابه المسقى بـ«فرائد الجمان» فيمن نظمني وإياه الزمان» في حق المذكور ما نصه: «ذو الوزارتين، الفقيه، الكاتب أبو عبد الله بن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المتزمي بيده لوحة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب»<sup>(١)</sup>.

وقال غيره<sup>(٢)</sup>: إن بيتهم يعرف قديماً بيته الوزير، وحديثاً بيته الخطيب، وسعيد جده الأعلى أول من تلقب بالخطيب، وكان من أهل العلم والدين والخير. وكذلك جده الأقرب سعيد، الذي توفي سنة ٦٨٣ هـ. وكذلك أبوه كما أشرنا سابقاً. وما قيل فيه:

ما نقله المقرئ في نفع الطيب<sup>(٣)</sup>، عن الباعوني يروي عن ابن خلدون بأنه «كان يكثر من ذكر لسان الدين، ويورد من نظمه ونشره، ما يشتف به الأسماع، وينعقد على استحسانه الإجماع، وتتقاصر عن إدراكه الأطماء».

---

(١) نفع الطيب: ٧/٥.

(٢) نفع الطيب: ٨/٥.

(٣) نفع الطيب: ١٩٢/٦.

وما يروى عن ذكائه، وسرعة جوابه، وحسن معرفته بالملوك وأحوالهم، وطراائق مخاطبיהם، أنه حضر يوماً بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتاته عليه لغرض الرسالة، فذكر بعض أعدائه، فتكلم لسان الدين ما اعتقده في اطراء ذلك العدو، فأنكر بعض الحاضرين عليه تملقاً للسلطان فقال ابن الخطيب: «أيذكم الله، تحقر عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء»، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان غالب عدوه، كان قد غالب غير حقير، وهو الأولى بفخره وجلاله قدره، وإن غالب عدوه، لم يغلبه حقير، فيكون أشد للحسنة، وأكيد للفضيحة، فوافق - رحمه الله تعالى - على ذلك واستحسنه، وشكر عليه، وخجل المعرض»<sup>(١)</sup>.

## أعداؤه:

عندما كان لسان الدين في ذورة مجده، ينعم بالسلطة والجاه، لم يجرؤ أحد أن يعكر عليه، أو يتقصيه ولما انقلبت الأحوال، تكاثر أعداؤه، وتضافروا وأكثروا عليه الكلام، «ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ريبة الإسلام بتتفصي النبي عليه الصلاة والسلام، والقول بالخلول والاتحاد، والانحراف في سلك الإلحاد، وسلوك مذاهب الفلسفه في الاعتقاد، وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد. مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوي، وكلمات كدروا بها منهل علمه الروي، ولا يدين بها ويقوه إلا الضال الغوي،

---

(١) نفع الطيب: ٧٩/٥.

والظن أن مقامه منها بري<sup>(١)</sup>. وكان الذي تولى كبر محنته وقتله تلميذه أبو عبد الله بن زمرك، وقد مر أنه كان في مجلس المحاكمة الذي عُقد لابن الخطيب في المغرب. ومن أعدائه<sup>(٢)</sup>، الذين انقلبوا عليه، بعد أن كانوا يطلبون مرضاته، القاضي أبو الحسن بن الحسن التباهي، فوجد في نفسه أن يكون في عداد مساعديه، وظل يضرم له الشر، ويحيك المؤامرات مع ابن زمرك وغيره، حتى قتل لسان الدين، ولعله كان يتوقع نهاية دولته، وكان أحسن انقضاض الإخوان من حوله فقال<sup>(٣)</sup>:

تلوّن إخواني علي وقد جنت  
علي خطوب جمة ذات ألوانِ  
وما كنت أدرى قبل أن ينكروا  
بأن خواني كان جمع خواني  
وكانت وقد حم القضاء صنائعِ  
علي بما لا أرتضي شر أعوان

وقد قال هذه الأبيات في نكبة الأولى، عندما غادر هو وسلطانه إلى المغرب، فالحال هي الحال لم تتغير والأعداء لم يكفوا عن الكيد له، مع العلم أنه لطالما مدحهما وقربهما إليه، ومن إنشائه عند توليه ابن زمرك كتابة السر:

(١) نفع الطيب: ١١٨/٥.

(٢) نفع الطيب: ١١٩/٥.

(٣) نفع الطيب: ١٢٠/٥.

«هذا ظهير كريم، نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه، وأفرد له متلو العز وجشه، وأوته وشفعه، وقربه في بساط الملك تقربياً فتح له باب السعادة وشرعه، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه»<sup>(١)</sup>.

وعن الباقي قال<sup>(٢)</sup>: «... محمود المسجية مشكورها، متحللاً بالسكينة حالاً من النزاهة بالمكانة المكينة ساحباً أذياً الصون، بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون». وعندما ساءت الأحوال بينهما لقبه بالجعوس، وألف فيه كتاباً سماه: «خلع الرسن في وصف القاضي ابن الحسن». ومن الجدير بالذكر أن القاضي هذا، كان قدماً إلى المغرب من الأندلس، أيام مخنة لسان الدين الأولى، وكان القاضي يحمل سجلات فيها اتهامات ضد ابن الخطيب ويريد إمساء الأحكام فيها، فأبى سلطان المغرب عبد العزيز ورده قائلًا<sup>(٣)</sup>: «هلا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم؟».

#### أشياخه<sup>(٤)</sup>:

أخذ لسان الدين علومه عن جماعة من أهل العدو والأندلس منهم:

(١) نفع الطيب: ١٣٤/٥.

(٢) نفع الطيب: ١٣٢/٥.

(٣) نفع الطيب: ١١٩/٥.

(٤) أعمال الأعلام: ٣٠٠، ونفع الطيب: ١٨٩/٥.

١ - أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي، قاضي الجماعة، ورئيس العلوم اللسانية في الأندلس، المتوفى سنة ٧٦١ هـ بغرناطة. كان إماماً في الفقه والنحو والعروض. وكانت ولادته سنة ٦٩٧ هـ.

٢ - الإمام الرحال، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي المولود بتونس سنة ٦٦٧ هـ. وقد سمع بمصر على جماعة وكتب بخطه كثيراً، وله معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر القراءات. توفي بتونس سنة ٧٧٩ هـ.

٣ - ومن أكابر شيوخه: قاضي القضاة أبو عبد الله، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقربي، وقاضي الجماعة بفاس، تلمساني.

وكان مكتباً على النظر والدرس والقراءة، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير ويحفظ الحديث، وينتهر بحفظ التاريخ والأخبار، والأداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل والمنطق، ويكتب شرعاً، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال.

٤ - أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد، الشيخ الفقيه القاصي بمكناة.

٥ - يونس بن عطية الونشريسي، القاضي بقصر كتابة، وكان له عنابة بفروع الفقه، لقبه لسان الدين بمكناة الزيتون.

٦ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف، الفقيه الفاضل،

المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوى، ولديه جملة حسنة من  
أصول الفقه.

٧ - أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي، الفقيه المدرك الأستاذ في  
فن العربية.

٨ - أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسى الخباز، من أهل  
الظرف والانطباع والفصيلة، له مصنف حسن سماه «المنهل  
المورود في شرح المقصد المحمود»، له شعر.

٩ - ومن لقائهم في مكتنasa القاضي أبو عبد الله بن أبي رمانة  
وكان من أهل الحباء والخشمة.

ومن أساتذته: المكتب الصالح أبو عبد الله بن عبد المولى العواد  
الذى قرأ عليه القرآن، وقرأه أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن  
القيجاطي، وقرأ عليه العربية وهو أول من انتفع به، وقرأ على  
الخطيب أبي القاسم بن جزي، كما لازم قراءة العربية والفقه والتفسير  
على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار البيريشيخ النحوين لعهده،  
وقرأ على عبد الله بن بكر قاضي الجماعة، وتأندب بالرئيس أبي  
الحسن بن الحباب، وروى عن كثير من الأعيان، وأخذ الطب  
والتعاليم وصناعة التعديل عن أبي زكريا يحيى بن هذيل  
ولازمه<sup>(١)</sup>. وقد ذكر المقرى غير هؤلاء كثيرين<sup>(٢)</sup>.

(١) نفع الطيب: ٧٥/٥

(٢) فليراجع ذلك في الجزء ٥ من نفع الطيب.

## مؤلفاته:

بلغت تصانيفه نحو ستين<sup>(١)</sup> ، وهو قد فاق أقرانه، من حيث العدد ومن حيث المحتويات. ويقول المقربي في ذلك:  
تصانيف الوزير ابن الخطيب  
الذ من الصبا الغض الرطيب  
فأية راحية ونعم عيش  
تسوازي كتبه أم أي طيب  
وقد ذكر صاحب النفح هذه المؤلفات نقلًا عن «الإحاطة» على الوجه التالي:

- «التاج المحلي في مساجلة القدر المعل».
- «الكتيبة الكامنة في أدب المائة الثامنة».
- «الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر».
- «النقاية بعد الكفاية».
- «طرفة العصر في دولة بنى نصر»، في أسفار ثلاثة.
- «بستان الدول» ويحتوي على عشر شجرات: شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء والصلة، ثم شجرة الشرطة والمحاسبة، ثم شجرة العمل، ثم شجرة الجهاد وهي فرعان: أسطول، وخيوط، ثم شجرة ما

(١) نفح الطيب: ٩٧/٥

يفضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيارزة والبياطرة وال فلاحين والشدماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين، ثم شجرة الرعايا.

— «الصيّب والجهام والماضي والكهان»، وهو ديوان شعري في سفرين. ونثره في غرض السلطانيات كثير.

— «اليوسفي في صناعة الطب»، في سفرين كبيرين.

— «عائد الصلة»، في سفرين.

— «الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة»، في تسعه أسفار.

— «تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة».

— «جيش التوشيع»، في سفرين.

— «نقاضة الجراب في علاة الاغتراب»، في أربعة أسفار.

-- «عمل من طب لمن حب»، في الطب.

— «رقم الخلل في نظم الدول»، من الأراجيز.

— «الخلل المرقومة في اللمع المنظومة»، ألفية في أصول الفقه.

— «المعلومة»، أرجوزة في الطب.

— «المعتمدة في الأغذية المفردة»، أرجوزة.

— «السياسة المدنية»، أرجوزة.

— «في عمل الترياق الفاروقي».

— «الكلام على الطاعون المعاصر».

— «الإشارة».

— «قطع السلوك».

— «مثلى الطريقة في ذم الوثيقة».

ومن الكتب التي ذكر المقرئ اسماءها ولم ينقلها عن الإحاطة:

- «ريحانة الكتاب ونُجعة المتاب»، في عدة مجلدات، في التر.
- «نشر فرائد الجمان فيمننظمي وإياده الزمان».
- «روضة التعريف بالحب الشريفي». وقد عارض فيه «ديوان الصباية» لابن أبي حجلة صاحب «السکردان» وضمته من التصوف وعبارات أهل العجب العجاب، تكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة، وبذلك سُجل عليه أعداؤه في نكتبه الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ونسبوه إلى مذهب الخلول وغيره.
- «اللمحة البدرية في الدولة النصرية».
- «السحر والشعر».
- «معيار الأخبار».
- «مقاضلة مالقة وسلا».
- «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف».
- «المسائل الطبية» في مجلد.
- «الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة».
- «ن تكون الجنين».
- «الوصول لحفظ الصحة في الفصول».
- «الوزارة».
- «مقامة السياسة».
- «الغيرة على أهل الحيرة».
- «حل الجمهور على السنن المشهورة».
- «الزبدة المخوضة».
- «الرد على أهل الإباحة».
- «سد الذريعة في تفضيل الشريعة».

- «تقرير الشبه وتحرير الشبه».
- «استزال اللطف الموجود في سر الوجود».
- «أبيات الأبيات»، مختارات من مطالع فصائده.
- «فتات الخوان ولقط الصوان».
- «كتامة الدكان بعد انتقال السكان».
- «الدرر الفاخرة، واللجاج الزاخرة»، جمع فيه نظم ابن صفوان.
- «أعمال الأعلام فيما يوحي قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يغير ذلك من شجون الكلام».
- «المبادر الطيبة في المفاحير الخطبية»: ألفه للسلطان عبد العزيز في المغرب، يذكر فيه نهاية سلفه، وما لهم من المجد.
- «خلع الرسن في أمر القاضي ابن الحسن»<sup>(١)</sup>.
- «وتذويين شعر شيخه ابن الجياب»، وجع نثره وستاه: «تافه من جم ونقطة من يم».
- «شرح لكتابه رقم الحلل في نظم الدول».
- «الببيرة»، في مجلد.
- «البيطرة» في مجلد جامع مع حول الخيل.
- «رجز الأصول».

(١) القاضي ابن الحسن النباهي، والكتاب أعلاه ألفه في مساوىء النباهي للسلطان عبد العزيز في المغرب، لكون ابن الحسن هذا تولى كبر الخط منه وقد سعى في هلاكه، وقال عن الكتاب كما في النفع: «إنه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف، يسلِّي الشكال»، (فتح العطيب: ٥/١٨١).

نبذة عن كتابه: «الإحاطة بتاريخ غرناطة»<sup>(١)</sup>.

ألف هذا الكتاب في مآثر الدولة النصرية، وفي حضرتها غرناطة، وتحدث فيه عن ملوكها ووزرائها وكتابها وقوادها، وعلمائها، وأهل الشرف والرتب، وكل ما يتعلق بالمملكة من «حصانة قلعتها، وأصالحة منعتها، وقديم اختطاطها، وكريم جهادها ورباطها، وحسن ترتيبها ووضعها». وكان لسان الدين قد وضع الكتاب في ثمانية أجزاء، وأرسل منه نسخة إلى مصر - في حياته - ووقفها على أهل العلم وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء وذلك عام ٧٦٧ هـ، وقفَا شرعاً على جميع المسلمين يتتفعون به فراءة ونسخاً ومطالعة، وكان طلب<sup>(٢)</sup> من الفقيه العمداء معلم الجملة أبي عبد الله الشريسي، أن ينقل الكتاب من المبضات، ففعل وأتم الكتاب على ستة مجلدات، ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس سنة ٧٦٣ هـ ألحق بالكتاب بعض الزيادات، حتى بلغ الكتاب ثمانية مجلدات.

## أولاده:

هم ثلاثة<sup>(٣)</sup>: عبد الله و محمد، و علي، وقد حدثوا جميعاً عن والدهم وعن ابن الجياب.

(١) نفع الطيب: ١٠٢/٧.

(٢) نفع الطيب: ١٠٨/٧ والخبر عن ابن الأهر ويقول إن الكتاب تم في الأندلس على أئتي عشر جزءاً.

(٣) نفع الطيب: ٢٨٩/٧.

أما محمد فقد كان متصوفاً، ولم ي العمل في خدمة الملوك، على خلاف أخيه عبد الله، الذي كتب بالعدوتين، للملوك الحضرتين، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس، أيام كان أبوه مدبر الدولة، وكان عبد الله هذا حسن الشكل، جيد الفهم، يغطي منه رماد السكون جرة الحركة، كما كان منقيضاً عن الناس قليل البشاشة، حسن الخط، وسط النظم، كتب عن الأماء بالغرب، وأنشدهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات والإحسان، واحتال في خلعهم، ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة، فرأى على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني وعلى الفرج بن لب، واستظره بعض مبادئ العربية، واستجيز له من أدركه ميلاده من أهل المشرق والمغرب. وشعره حسن. كان مولده بغرناطة سنة ٧٤٣ هـ.

وما خاطب به لسان الدين أولاده:

يابني عبد الإله احتساباً  
عن أثاث ومنزيل وعقارات  
كيف يأس على خسارة جزء  
من يرى الكل في سبيل الخسار

أما علي بن لسان الدين، المكنى أبو الحسن، فإنه أخذ العلم عن أبيه وعن ابن الجياب وأبن مرزوق والشريف السبتي وعالم المغرب أبي عبد الله محمد المقربي وروى عن غير هؤلاء. وكان علي هذا نديم السلطان وخاصته من نصائحه قوله على لسان السلطان: «ومن المنقول عن الملل، والمشهور في الأواخر والأول، أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم

الرُّحَاتِ، وانقطعتَ فِيهِمِ الْمُثَلَّاتُ وَالنَّقَمَاتُ، وَشَحَّتِ السَّمَاءُ،  
وَغَيَّضَ الْمَاءُ، وَاسْتَولَتِ الْأَعْدَاءُ، وَانْتَشَرَ الدَّاءُ، وَجَفَّتِ الْفَرْوَعُ،  
وَأَخْلَفَتِ الرَّضْوَعُ<sup>(١)</sup>.

### تلاميذه:

وكانوا كثيرين، ولكن لم يحفظ الكل العهد، فكثير منهم ناصبه  
العداء واجتهد في ايدائه. ومن أشهر هؤلاء الوزير الكاتب أبو  
عبد الله بن زمرك<sup>(٢)</sup>، الذي ورث مرتبة أستاذه من بعده، وكان له في  
الفنون المختلفة من لغة وأداب وأخبار وسير وتفسير، إلى جانب  
اجتهاد وتصوف ورحلة، وله شعر جيد، ومنه قوله في الزهر<sup>(٣)</sup>:

يقر بعيني أن أرى الزهر يانعاً  
وقد نازع المحبوب في الحسن وصفةُ  
وما أبصرت عيني كزهر قرنفل  
حکى خذ من يسيي الفؤاد وعرفهُ  
تنبع في أعلى الهضاب لمجتنِ  
تنعه مني إذا رمتُ إلَّفَهَ

(١) نفع الطيب: ٧/٣٧٧ - ٣٧٩.

(٢) هو محمد بن أحد بن محمد بن يوسف الصريجي، ولد سنة ٧٣٣ هـ في  
ريص البيازين من غرناطة، وفيها نشأ. وتوفي بعد سنة ٧٩٥ هـ. وهو  
الذي دبر مقتل أستاذه ابن الخطيب كما مر. نفع الطيب: ٧/١٤٥ وما  
بعد.

(٣) نفع الطيب: ٧/١٧٧.

ومن تلامذته الطبيب العالم ابن المها شارح ألفية ابن سينا<sup>(١)</sup>.

ومن تلامذته: ابن جزي الكلبي<sup>(٢)</sup>.

ومنهم أبو عبد الله الشريسي<sup>(٣)</sup>. مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن والسنّة النبوية، وهو الذي نقل كتاب «الإحاطة» من ميضتها وأحکم النسخة. ومنهم:

أبو محمد عطية بن يحيى<sup>(٤)</sup> (٧٠٩ هـ - ?).

وله شعر جيد منه قوله في مدح لسان الدين:

يا سيداً فاق في مجده وفي شرفِ

وفات سبقاً بفضل الذاتِ والسلفِ

ومعدناً لنفيس الدر فهو لما

حواه منه لدى التشبيه كالصدفِ

(١) وألفية ابن سينا هي أرجوزته المعروفة في الطب. وشرحه عليها من أحسن الشرروح. نفع الطيب: ٢٨١ / ٧.

(٢) أبو بكر ابن الشيخ أبي القاسم بن جزي، شيخ لسان الدين وقد تقدمت ترجمته، وقد روى أبو بكر كثيراً عن أستاده لسان الدين وجمع مؤلفاته.

(٣) نفع الطيب: ٢٨٢ / ٧.

(٤) القاضي الكاتب، عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحد بن عبد الرحمن بن عالب بن عطيه المحاري، قال عنه لسان الدين في الإحاطة: «صاحبنا الفقيه الخطيب، كاتب الانشاء بالباب السلطاني... بارع الخطط، جيد القراءة سيد المداد، نشيط البناء، خطيب ناظم ناشر». (نفع الطيب: ٢٨٢ / ٧).

ما أنت إلا وحيد العصر في شيءٍ  
وفي ذكاء وفي علم وفي ظرفٍ  
يا صاحب القلم الأعلى الذي جمعت  
فيه المعالي فبعض البعض لم أصفِ  
ومن تلامذته الذين ذكرهم المقرئ<sup>(١)</sup>: أحد بن سليمان بن  
فركون.

(١) نفح الطيب: ٧/٢٨٧

## الفصل الثالث

### شعره وموشحاته

#### أولاً: الشعر:

ترك لسان الدين مجموعة شعرية ضخمة، بنيها في مؤلفاته الستين، وقد اختار ما استحسن، في الأغراض المختلفة وجمعه في كتاب سماه «أبيات الأبيات»، وتمثل هذه الأبيات مطالع قصائده. وإن من يتبع هذه القصائد يجد شعراً في نهاية الحسن والجودة، فيه من العذوبة والأناقة ما يرفعه إلى مستوى شعراء المشرق المبرزين، ولا سيما أنه نظم في الفنون الشعرية المختلفة؛ التقليدية منها والمستحدثة؛ كال مدح والذم والعتاب والزهد والوصف والرثاء والعزاء والتشبيب والألغاز والمواعظ والحكم والشعر التعليمي. أما الفنون المستحدثة فبأي على رأسها الموشح وقد ضرب لسان الدين منه بسهم وافر. وستحاول فيما يلي أن ندرس بعض أشعاره من حيث خصائصها وأغراضها.

## المدح:

مدح لسان الدين العظيماء من السلاطين والملوك، كما مدح النبي ﷺ مدحًا صادقًا، ففي مدحه النبوي توکاً على المعانى المألوفة في المدح، فهو يعبر عن شوق لزيارة القبر الشريف في رسالة التحية عبر الأثير ليقول<sup>(١)</sup>:

هل كنت تعلم في هبوب الريح  
نفساً يؤجج لاعج التريخ  
اهدىك من شيخ الحجاز غيبة  
فاحت لها عرض الفجاج الفيج ..  
حسبى ولو عاً أن أزور بفكري

زوارها والجسم رهن نزوح  
فأبى فيها من حديث صباتي  
وأحت فيها من جناح جنوحى

ثم يتسرع على عمر أمضاه في الترهات، ويتمنى أن يقطع الغلوات، ويجد السير والسرى ليصل إلى الحجاز شوقاً للحبيب ﷺ فهناك تطمئن نفس الشاعر وتهداً. ومن الواضح استخدامه لكلمات تقليدية ترتبط بصور من البدية يقول<sup>(٢)</sup>:

---

(١) نفح الطيب: ٤٤٩/٦.

(٢) نفح الطيب: ٤٥٠/٦.

لهفي على عمر مضى أنفسيته  
في ملعي للترهات فسيح  
يا زاجر الوجناء يعسّف الفلا  
والليل يعثر في فضول مُشوح  
يصل السرّى سقاناً إلى خير الورى  
والركب بين موئد وطريح  
وقال في قصيدة أنسدتها أبا سالم ملك المغرب سنة 763 هـ في  
المولد النبوى<sup>(١)</sup>:

تألقَ نجديباً فاذكرني نجداً  
وهاجَ بي الشوق المبرح والو جداً  
وميضرَ رأى بُرد الغمامَة مغفلًا  
فمذَ يداً بالتلبر أعلمَتِ البرداً  
سقى الله نجداً ما نضحت بذَرها  
على كبدِي إلا وجدت لها بَرداً  
وأنسَ قلبي فهو للعهد حافظ  
وقيلَ على الأيام من يحفظ العهداً  
لي الله كم أهْذِي بنجدي وحاجِر  
وأكْنِي بـدَعِيدٍ في غرامي أو سعدِي  
وقيلَ يا رسول الله عبد تقاصرت  
خطاه وأضحيَ من أحبته فرداً

---

(١) نفع الطيب: ٤٥١/٦.

تقدمت مختاراً، تأخرت مبعثاً  
فقد شملت عليك القبل والبعدا  
فماذا عسى يشئ عليك مقصراً  
ولم يألف فيك الذكر مدحأ ولا حدا

الآ لیست شعري هل أراني ناهداً  
أقود القلاص البدن والضامر النهداً  
لولدك اهتز الوجود فأشرتقت  
قصور ببصري ضاءت الهضب والوهدا

هذه الأبيات، كما الأبيات السابقة، يبني فيها أشواقه لزيارة  
النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، ثم يعبر عن تقصير الكلمات في التعبير عما في نفسه،  
وهي عاجزة أصلاً من بلوغ ما يحيط بشخصية النبي من الرفعة  
والسمو. أما من حيث الشكل فإن الشاعر يسير على طريقة غيره في  
الافتتاحية بالحنين إلى نجد تارة وإلى الحجاز تارة أخرى. ثم يستسقى،  
كعادة أسلafe من المشرقيين وغيرهم، لنجد دلالة على شوقه وجبه،  
ولا يسعه هنا إلا أن يأتي على ذكر عدد وسعدى، كناية عن غرامه  
وهيامه لزيارة تلك الديار، ويتهيى إلى طلب الاستعجال في الرحيل  
بذكر النياق القوية والخيول الضامرة التي تساعده لبلوغ مقصده.

وفي قصيدة<sup>(١)</sup> أخرى خاطب فيها السلطان الملك الكبير، العالم  
أبا عنان، تراه حزيناً كثيناً، وكأنه ينعي نفسه، يتضجر من الحال ومن

---

(١) نفح الطيب: ٤٥٥/٦.

الدهر وما هو فيه، وهو يتمنى العودة إلى أيام الصبا ولكن الواقع  
يمنع من ذلك فيقول في بداية القصيدة:

أبدي لداعي الفوز وجهه منيب

وأفاق من عذل ومن تأنيب

كلف الجنان إذا جرى ذكر الحمى

والبيان حنن له حنين النسب

والنفس لا تنفك تكلف بالهوى

والشيب يلحظها بعين رقيب

أتري التغزل بعد أن ظعن الصبا

شأني الغداة أو النسب نسيبي . . .

فكل الأمور إذا اعترتك لربها

ما ضاق لطف الرب عن مربوب

من رام نيل الشيء قبل أوانه

رام انتقال يملّم وعيّب<sup>(١)</sup>

إذاً، هو لم يفتتح بمعطلع غزلي أو حكمي على عادة التقليديين، بل  
تهرب من ذلك بحججة ما هو فيه من تقدم في السن ومن سوء الحال،  
فعبر عن مأساته مع الناس والزمن، وخرج بمجموعة من الحكم  
ومواعظ، منها البيتان الأخيران في ما أثبتهما أعلاه، إذ يدعوا للاتكال  
على الله وإلى عدم التسرع والتعجل في طلب المراد، ليتخلصن بعد ذلك

---

(١) يملّم وعيّب: جبلان في بلاد نجد.

إلى المدح<sup>(١)</sup>:

بخلفة الله الذي في كفه  
غيث يرودن ساح كل جديب  
المتقى من طينة المجد الذي  
ما كان يوماً صرفه بمشوب  
  
ويرى الحقائق من وراء احجامها  
لا فرق بين شهادة وغميوب  
أسد الشرى سُرُج الورى فمقامهم  
له بين عمارب وحرروب  
تروي العوالى والمعالي عنهم  
أثر الندى المولود والمكسوب  
 جاءوا كما اتسق الحساب أصالة  
وغدا فذلك ذلك المكتوب  
متجسداً من جوهر النور الذي  
لم ترم يوماً شمسه بغروب  
فرأيت أمن الله في ظل التقى  
والعدل تحنت سرادق مضروب  
ورأيت سيف الله مطرور الشبا  
يمضي القضاء بحده المرهوب<sup>(٢)</sup>

---

(١) الآيات في نفح الطيب: ٤٥٦/٦، نقلًا عن «آيات الآيات» و«الصيّب والجهنم».

(٢) شبا السيف: حده.

ووردت بحر العلم يقذف موجه  
للناس من درر الهدى بضرورب  
وشهادة الإخلاص توجب رجعتي  
لنعمتها من غير مس لغوب  
يا ناصر الدين الحنيف وأهله  
أنفساء مسغبة وفل خطوب  
نادتك أندلس وبمجدك ضامن  
أن لا يخيب لديك ذو مطلوب  
والروم فارم بكل نجم ثاقب  
يذكرني بأربعها شواطئ لهيب  
لكأني بك قد تركت ربوعها  
فقرأ بكر الغزو والتعقيب  
جعل الإله البيت منك مثابة  
للعاكفين وأنست خير مثيب  
من لم يدين الله فيك بقربية  
هو من جناب الله غير قریب  
يبدو أن الشاعر، ومرة أخرى، يحدو حدو المشرقيين، في الصور  
والمعاني، فكف الخليفة غيث، وسيقه قاطع، وهو من قوم شجعان  
أسود، ومدحه ماض في عزيمته، يرى الأشياء من وراء الحجب،

ويذكرنا ذلك بقول المتنبي:  
 إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً  
 مضى قبل أن تلقي عليه الجوازم  
 تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى  
 إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ويتتهي بعد ذلك إلى الاستغاثة به، ويستحثه أن يهب لتخليص الأندلس مما هي فيه، ويدحر الروم وغيرهم حتى يصير التقرب إليه من الدين. وخلاصة القول، إن هذه المعانٍ تقليدية مألوفة، إلا أنها لا تخلو من جديد بإدخال معنى فلسفـي: «متجسداً من جوهر النور...»، وكذلك صورة البحر فإنه استخدمها مقرونة بالعلم فالبحر عنده يقذف درر الهدى، وليس اللؤلؤ كما هو المألف، ولكن البحر ما زال رمزاً للعطاء على كل حال. ومن ناحية الشكل تلاحظ بعض الصور البدعية «العلـى والـعـالـى»، «محارب وحروب»، والطباقي في قوله: «شهادة ومغـيب»، «مولود ومكسوب» «قربه وغير قرـيب»، هذه الصور، بمعظمها غير متكلفة، بل جاءت عفوية، والأبيات غنية بالصور البيانية الموقفة «في كـفـهـ غـيـثـ»، «طـيـنـةـ المـجـدـ»، «سـرـوجـ الـورـىـ»، «الـنـدـىـ الـمـولـودـ»، «بـحـرـ الـعـلـمـ»، نـادـتـكـ أـنـدـلـسـ»، مما أـكـسـبـ القصيدة إجمالاً رونقاً وخفة، وقد ساهم الصدق العاطفي، في قوة تأثيرها، لأن الشاعر لم يكن يطلب مالاً أو يتضرر قضاء غرض من أغراضه الزائلة، بل كان يرى في ملك المغرب منقذاً حقيقـاً لما تـخـبـطـ به بلاد الأندلس، فيتوجه إليه مخلصـاً في دعوته لينصر الإسلام والمسلمين، وعلى سفن المشارقة، يعتبر أن الدافع الديني هو الأساس، ولهذا السبب أكثر من الإضافـاتـ إلى لـفـظـةـ الجـلالـةـ: «خـلـيـفـةـ اللهـ».

فمقامهم لله، أمن الله، سيف الله، جعل الإله البيت، لم يدِن الله،  
جناب الله». كل ذلك يعكس عاطفة لسان الدين الدينية بالإضافة إلى  
عاطفته الوطنية نحو أهله وبلده ومجد بني قومه.

وتراه يقتفي أثر الفرزدق في المعاني المدحية فيقول<sup>(١)</sup>:

يَا نَاصِرَ الدِّينِ لَا قَلْ نَاصِرَه  
وَمُطْلِعَ الْجَهُودِ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ أَفْلَأَ  
لَوْلَا التَّشَهِيدُ وَالْتَّرَدَادُ مِنْكَ لَه  
لَمْ يَسْمَعِ النَّاسُ يَوْمًا مِنْ لِسَانِكَ لَا  
وَمِنْ الْمَعْانِي الْحَسَنَةِ فِي الدَّمَحِ، وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْوَضَاءَةِ وَالشَّجَاعَةِ فِي  
صُورَةٍ وَاحِدَةٍ:  
وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى لَلَّاءَ غَرْتَهُ  
يَوْمَ الْهَيَاجِ رَأَيْتَ الشَّمْسَ فِي الْأَسْدِ

ومن المعاني التقليدية في الجهود والعطاء أن يشبه الكريم بالغمام  
والقطر، وقد أخذ لسان الدين هذا المعنى وأدخله في صورة جديدة  
قوامها عطاء الكف، ووضاءة الوجه عند العطاء وصورة القطر في

---

(١) نفح الطيب: ٤٦٨/٦.

انظر قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين ولا سيما قوله:  
مَا قَالَ لَا قَنْطَطَ إِلَّا فِي تَشَهِيدِهِ  
لَوْلَا تَشَهِيدَ كَانَتْ لَاهُ نَعْمَ

غياب الغمام، يقول<sup>(١)</sup>:

عجبًا لراحتك الملائكة بالندى

أن لا تكون على الغمام غماما

يهمي وجهك نوره متالقُ

والقطر إن سحب السحاب أغاما

ومن قصيدة مدح بها الغني بالله حمدأ عند عودته من المغرب إلى

الأندلس وقد سماها: «المنج الغريب في الفتح القريب»<sup>(٢)</sup>:

الحق يعلو والأباطل تسفل

والله عن أحكامه لا يسألُ

وإذا استحالست حالة وتبذلت

فإله عز وجل لا يتبدل

أحمد والحمد منك سجينة

بحليها دون الورى تتجمّل

ولنك السجايا الغر والشيم التي

بغريبيها يتمثل المتمثل

والبحر قد حنيت عليك ضلوعه

والريح تقطع للزفير وترسلُ

(١) نفح الطيب: ٤٦٧/٦.

(٢) نفح الطيب: ٤٧٨/٦. أزهار الرياض: ٢٦٢/١.

وهذه القصيدة، يذكر المقري، عندما أوردها، أن السلطان محمدأ قد أمر بكتابة أبيات القصيدة على جدران قصر الحكم بغرناطة أي قصر الحمراء.

يبدأ القصيدة بحكمة بلية مستمدّة من عقيدة التوحيد، فالحق لا بد أن يسود ولا بد للأمور أن توضع في نصابها، والله يفعل ما يريد ولا يُسأل عما يفعل، ينتقل إلى مدح سلطانه الذي جمع له في أبياته هذه كل السجايا والشيم الكريمة، فهو لا يبارى في المكرمات لدرجة أنه يطلب منه أن يتبعه قاتلاً له:

عوذ كمالك ما استطعت فإنه  
قد تنقص الأشياء مما تكمل  
والله قد ولأك أمر عباده  
لما ارتضى بك فيما لا تعزل

وبالنظر إلى كماله وجيّل صفاتـه، فإن الله قد ارتبـاه فيما على أمور الأندلس وأعادـه إلى ملكـه عزيـزاً كما كان وفي مثل هذا القول دلالة على تأثيرـ الشاعـر بالـمشرقيـنـ، في الدـفاع عن حقوقـ الحـاكمـينـ، فإذاـ أرادـ أحـدـهـمـ أنـ يـثـبـتـ حـاكـمـاـ يـدـعـيـ لـهـ الـأـوـلـويـةـ وـالـأـفـضـلـيـةـ فيـ السـجـاـيـاـ الكـريـمـةـ وـفيـ الـدـيـنـ وـالـأـخـلـاقـ، وـيـزـعـمـ كـلـ شـاعـرـ منـ شـعـراءـ السـيـاسـةـ، كـماـ فعلـ لـسانـ الدـيـنـ هـنـاـ، بـأنـ سـلـطـانـهـ قدـ أـعـطـيـ حـقاـ منـ عـنـدـ اللهـ، وـتـأـيدـ بـنـصـرـهـ عـلـىـ أـعـدـائـهـ، وـمـنـ يـكـنـ كـذـلـكـ شـائـهـ فـلـاـ يـقـفـ فـيـ طـرـيقـهـ أـحـدـ. وـالـجزـءـ الـأـخـيـرـ مـنـ القـصـيـدـةـ يـتـنـاـوـلـ فـيـ الشـاعـرـ اـسـتـعـراـضـ القـوىـ، فـيـتـحدـثـ عـنـ الجـيـادـ فـيـصـفـهـاـ:

منـ كـلـ منـجـرـدـ أـغـرـ مـجـلـ  
يـرـمـيـ الجـلـادـ بـهـ أـغـرـ مـجـلـ  
زـجـلـ الجـنـاحـ إـذـ أـجـدـ لـغـايـةـ  
وـإـذـ تـغـنـىـ لـلـصـهـيـلـ فـبـلـ

يبالغ في تعظيم قوة الخيول فهي سريعة قوية تنقض كالصواعق،  
وكان الفرس هيكل يتحرك:  
فكانما هو صورة في هيكل  
من لطفه وكأنما هو هيكل

ومنها قوله:

لله قومك عند مشتجر القنا  
إذ شوب الداعي المهيّب وأقبلوا  
قوم إذا لفح الهجير وجروهم  
حجبوا برايات الجهاد وظللوا

ومن مدائحه التي طارت في الآفاق، وحازت قصب السبق  
سينيته<sup>(١)</sup> الشهيرة التي قالها في مدح السلطان أبي حمود موسى بن  
يوسف، سلطان تلمسان، وهذا فيها حدو أبي تمام في قصيدة التي  
أولها:

أقشيبة ربعم أراك دريسا  
تقري ضيوفك لوعة ورسيسا  
وكان لسان الدين افتتح القصيدة بمطلع غزلي من عدة أبيات  
أولها قوله:  
أطلعن في سدف الفروع شموسنا  
ضحك الظلام لها وكان عبوسا

---

(١) الآيات كاملة في نفح الطيب: ١٩٥/٦.

وعطفن قضاً للقدود نواعما  
بُؤثِنَ أدواح النعيم غُروسا...

ثم يتغلل إلى التأمل في أبيات قليلة منها قوله:  
وسجية الإنسان ليس بناصل  
من صبغها حتى يرى مرموسا  
يغتر مهما ساعدت آماله  
فإذا عرأ الخطب كان يؤوسا

ويخلص بعد ذلك إلى المدح، وعما قاله:  
بحمى أبي حُو حطّت ركائبِي  
لَا اختبرت الليث والعريسا  
أسد الهياج إذا خطأ فُدُما سطا  
فتخلف الأسد الهزير فريسا  
غيث النوال إذا الغمام حلوبة  
مثلت بأيدي الحالين بسواسا  
جمع الندى والباس والشيم العلا  
والسؤدد المتواتر القدموسا

ويلاحظ أن الشاعر لم يخرج عن سنن الأقدمين المشرقيين، من حيث الشكل ومن حيث المضمون، فمن حيث الشكل، افتتح، كما أشرنا، بمطلع غزلي، كما أنه حافظ على التسلسل في الأفكار والقصيدة يسيطر عليها نغم موسيقي من خلال الألفاظ العذبة السهلة من جهة، ومن خلال قافية السين التي اضفت على الأبيات نفساً حزيناً أراده الشاعر ليعبر عن مأساة نفسه، والأبيات تشتمل على

اللفاظِ بدوية بالإضافة إلى الألفاظ المستمدَة من البيئة الدينية والفكريَّة التي تأثر بها ابن الخطيب، فمن لفاظه البدويَّة: (الجُرد العتاق، البسوس، أسد الهياج، السعد، مرموس)، ومن الألفاظ الدينية: (طغى فرعونه، عذت بموسى، اليمين، فطر الإله، ذرء الخلق، الملائكة، ثغر الله، ارتضاه الله) وغير ذلك كثُرَار اسم الجلالة في مواضع أخرى.

أما من حيث المعانِي فليس فيها من التجديد إلا في الإخراج لأن الشاعر قد قلد أبا تمام إلى حد بعيد.

ومن أجود مدائنه، مقطوعة قالها في سفارة له إلى المغرب للغُنْي بالله محمد سلطان الأندلس، وكان سلطان المغرب يومذاك أبو عنان، فلما قدم ابن الخطيب عليه، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائهم، واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يديه، فأنسد وهو قائم<sup>(١)</sup>:

خليفة الله ساعده القدر  
علاك ما لاح في الدجى قمر  
ودافعت عنك كف قدرته  
ما ليس يستطيع دفعه البشر  
وجهك في النابات بدر دجى  
لنا وفي المحمل كفك المطر

---

(١) الآيات والخبر في نفع الطيب: ٩٨/٥.

والناس طرأ بأرض أندلس  
 لولاك ما أوطنوا ولا عمروا  
 وحملة الأمر أنّه وطئنْ  
 في غير عليك ما له وطر  
 ومن به مذ وصلت جبلهم  
 ما جحدوا نعمة ولا كفروا  
 وقد أهتمم بأنفسهم  
 فوجهوني إليك وانتظروا  
 وقد اهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له بالجلوس، وقال له  
 قبل أن يجلس: «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم»، ثم أثقل كاهمهم  
 بالإحسان ورد لهم بجميع ما طلبوه، وقال القاضي أبو القاسم الشريف  
 وهو أحد شيوخ لسان الدين وكان معه في الوفد: لم نسمع بسفير  
 قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا.

### الهجاء:

كان بارعاً في القدح والذم، كما كان يجيد المدح تماماً. وقد بلغ في  
 هجائه حد الإقذاع إلى حد لا يتحمله أحد، «وهو أشد من وقع النبال»  
 كما قال المقرى<sup>(١)</sup> سواء في الشعر أو في التتر.  
 يقول من قصيدة يهجو فيها الوزير إبراهيم بن أبي الفتح<sup>(٢)</sup>:

(١) نفع الطيب / ٥ ١٣٨.

(٢) وكان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحر الذي ثار على أخيه محمد الغني وزيره ابن الخطيب سنة ٧٦٠ هـ.

كُنْ مِنْ صَرْوَفَ الرَّدَى عَلَى حَذْرٍ  
لَا يَقْبَلُ الدَّهْرُ عُذْرًا مُعْتَذِرٍ  
وَلَا تَعْوَلْ فِيهِ عَلَى دُعَيْةٍ  
فَأَنْتَ فِي قُلْعَةٍ وَفِي سَفَرٍ  
قَلْ لِلْوَزِيرِ الْبَلِيدِ قَدْ رَكَضَتْ  
فِي رَبْعَكَ الْيَوْمَ غَارَةُ الْغَيْرِ  
يَا بْنَ أَبِي الْفَتْحِ نَسْبَةُ عُكْسَتْ  
فَلَا بِفَتْحِ أَتَتْ وَلَا ظَفَرَ  
بَسَاتْ لِهِ الْمُشْتَرِي عَلَى غَيْرِ  
وَأَحْرَفَتْ فِيهِ فَرْصَةُ الْقَمَرِ  
يَا مُفْرَطَ الْجَهَلِ وَالْغَبَاوَةِ لَا  
يُحَسَّبْ إِلَّا مِنْ جَمْلَةِ الْبَقَرِ

قد بدأ القصيدة بحكمة وموعظة، فلا ينبغي للمرء أن يطمئن، وينتقل إلى الهجاء مباشرة، فيتهم المهجو بالجهل والغباوة، إلى حد إخراجه من جملة البشر، وهو بزعم ابن الخطيب، حاقد، فظ، حسود، شرير، وهو وعاء ملء قذارة، وهو قليل الخير بعيد عن المروءة والمكارم، ناقص الدين، ولا يكتفي بثلبه بل يتجاوز إلى الطعن في نسبة وفي ذويه وقومه:

يَا نَاقصُ الدِّينِ وَالْمَرْوِةِ وَالْعَقْلِ  
وَجَرِيُّ اللِّسَانِ بِالْهَذْرِ

إن الناظر في هذه الأبيات، لا يسعه إلا أن يندهش لصدور مثل هذا الكلام عن رجل بمنزلة ابن الخطيب علماً ومكانة سياسية واجتماعية، فمهجوره بليد مشؤوم، منحوس ونحس، وهو بقرة ثم ولد السحق، ثم بغل يدور بطاحونة ثم هو أقل من الكلاب على حد زعمه:

وَمَنْ أَبُو الْفَتْحِ فِي الْكَلَابِ وَهُلْ  
جَاهِلٌ فِي الْأَنَامِ مِنْ خَطْرِ

وقد مزج في هجائه بين التيارات المختلفة في الهجاء، إذ تناول المقاييس المادية والمعنوية في المهجو، وضخمها، ثم أفحش وعلى طريقة ابن الرومي في الشتم والتحقير، حتى غدا أبو الفتح أضحوكة بين الناس، وليس لقارئ هذه الأبيات إلا أن يتقرز من تكون أوصافه كما ورد على لسان الشاعر، وفي الوقت ذاته يتقرز من هذه الطريقة التي لا تخلو من المبالغة والتسلف إلى حد الافتراء واصطناع الكذب المعيب.

وهو القائل<sup>(١)</sup> على سيل التورية في شأن السلطان الذي ثار وذهب:

بِإِسْمَاعِيلِ ثُمَّ أَخِيهِ قِيسِ  
تَأْذَنْ لِي لُلْ هَمِي بِسَانْبَلاَجِ

---

(١) نفع الطيب: ١٤٢/٥. وفي أزهار الرياض: ١/٢٧٤.

دم الأخوين داوى جرح قلبي  
وعاجنني وحسبك من علاج

وقال<sup>(١)</sup> يهجو بعض أهل سلا:

أهل سلا صاحت بهم صائحة  
غاديَةُ في دورهم رائحة  
يكفيهم من عوز أنهم  
ريحانهم ليست لهم رائحة

### الوصف:

اعتمد الشعراء الأندلسيون على عدة مقومات في التعبير عن المحسوسات؛ منها الجمال الطبيعي، واعتدال المناخ، والحرية والثراء وحياة الترف التي عاشها كثير منهم خصوصاً أهل الحكم، في قصورهم ويساتينهم، ودورهم التي امتلأت بالجواري الحسناوات، بالإضافة إلى كل ذلك، فقد ظل الأندلسي يتطلع إلى الشرق، ويقلد ويحذو حذو أسلافه من كبار الشعراء في الوصف وغيره، وابن الخطيب، كغيره من شعراء الأندلس، شغف بالطبيعة، ومزج بينها وبين هواه وميوله، فهي عندهم جيعاً مبعث للذلة والمتعة، ولا يخلو السمر إلا بين أحضان تلك الطبيعة الساحرة، يقول<sup>(٢)</sup>:

(١) نفع الطيب: ٦/٢٧٨.

(٢) نفع الطيب: ٦/٤٧١.

كأنما السروض ملك  
باهاوى به جلساه  
يررضى النديم فمهما  
سقى الرياض كساه

وقال لما أشرف على المخضرة المراكشية<sup>(١)</sup> :  
ماذا أحدث عن بحر سبحث به  
من البحار فلا إنتم ولا حرج  
دحاه متبدع الأشياء مستوياً  
ما إن به درك كلاً ولا درج  
حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا  
صحت أبشرى يا مطايما جاءك الفرج  
قربت من عامر داراً ومنزلة  
والشاهد العدل هذا الطيب والأرج  
وقال عند وقوفه على مراكش واعتباره بما صار إليه أمرها<sup>(٢)</sup> :  
بلذ قد غزاه صرف الليالي  
وابباح المصون منه مبيح  
أعجمت منه أربع ورسوم  
كان قدمها بها اللسان الفصيح

(١) نفع الطيب: ٤٨١/٦.

(٢) نفع الطيب: ٤٨٥/٦.

يحدثنا في الأبيات الأربع الأولى عن البحر وسكونه، ويثنى على الله خالقه، ثم يستبشر خيراً قبيل وصوله إلى مراكش، ويبعد أنه لم يأت بجديد في هذه الأبيات، ولكنه سار على الطريقة التقليدية من حيث اختيار الموضوع، مع فارق يميزه عن المشارقة وهو أنهم كانوا يتهدبون البحر وهو يبني نوعاً من الاطمئنان.

وكذلك الأمر في المقطوعة الثانية، فهو يبكي على ما كان من الأئمدة السالفة، ويندب ما تخرّب، وما تهدم، فالموضوع ليس بجديد بل هو قديم مغرق في القدم، يسير في وصفه على سنن الجاهليين في الوقوف على الأطلال.

وقال في غرناطة<sup>(١)</sup>:

أحييك يا معنى الكمال بواجب  
وأقطع في أوصافك الغر أوقات

تقسّم منك الترب قومي وجيري  
ففي الظهر أحجائي وفي البطن أمواقي

٦ / ٥٠٣ نفع الطيب:

والملاحظ في هذين البيتين غلبة عنصر الوجдан على الوصف،  
فليس هنالك تلك الرشاقة والخفة الفنية التي تُلاحظ في أوصاف  
البحتري مثلاً وابن الرومي من المشرقيين، ولا هو بلغ ما بلغه ابن  
زيدون وابن عبد ربه من الأندلسين.

وقال يصف مروحة سلطانية<sup>(١)</sup>:

كأني قوس الشمس عند طلوعها  
وقد قدمت من قبلها نسمةُ الفجرِ  
وإلا كما هبت بمحتمد الروغى  
بنصرٍ ولكن من بنود بنى نصر

## العتاب:

ولعل الدافع إلى معايباته، شعراً ونثراً، شعوره بالعظمة، من  
خلال موقعه كوزير، ومن معايباته أنه لما دخل مدينة مكناسة  
الزيتون، تأخر قاضيها ابن أبي رمانة عن لقائه يوم وصوله، فكتب  
إليه<sup>(٢)</sup>:

جفا ابن أبي رمانة وجه مقدمي  
ونكبَّ عنِي معرضاً وتحامساني

(١) نفع الطيب: ٦/٥٠٣.

(٢) نفع الطيب: ٥/١٤٤.

وحجب عنِّي حبَّهُ غيرَ جاهلٍ  
 بـأني ضيفٌ والمبرة من شاني  
 ولكن رأي مغريباً محققاً  
 وأن طعامي لم يكن حبَّ رمان  
 وأردف هذه الأبيات بكلام منه: «زيارة القاضي أصلحه الله لثلي  
 من لا يخافه ولا يرجوه، تحب من وجوهه: أولها كوني ضيفاً، من لا  
 يُعَدُ على الاختبار زيفاً، ولا تجدر مواسته حيفاً...». وتبدو في البيت  
 الثالث روح الشاعر الساخرة وحبه للنكتة.

## الرثاء:

قال<sup>(١)</sup> في رثاء السلطان أبي الحجاج:  
 غبت فـلا عينٌ ولا مخبر  
 ولا انتظارٌ منك مرفقوب  
 يا يوسف انت لنا يا يوسف  
 وكلنا في الحزن يعقوب<sup>(٢)</sup>  
 وقال عندما وقف على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات<sup>(٣)</sup>:

(١) نفع الطيب: ٤٧٤ / ٦.

(٢) يوسف الأولى: اسم السلطان، والثانية اسم النبي يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

(٣) المعتمد: هو المعتمد ابن عباد أعظم ملوك إشبيلية مات بأغمات بعد أن خلع وسجن والأبيات في نفع الطيب: ٤٩٥ / ٦.

قد زرت فبرك عن طوع بأغامت  
رأيت ذلك من أولى المهماتِ  
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً  
ويا سراج الليالي المدلهماتِ  
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه  
إلى حياءٍ بجادت فيه أبياتي  
أنفاف قبرك في هضب يميّزه  
فتشحّيَّه حفيّات التحيّاتِ  
كرمت حيَاً وميّاً واشتهرت عُلَّا  
فأنت سلطانُ أحباء وأمواتِ  
ما رَيْءٌ مثلك في ماضٍ، ومعتقدي  
أن لا يُرى الدهرَ في حالٍ ولا آتٍ  
يتضح من خلال ما تقدم أنه صادق في عواطفه في المقطوعتين،  
وخصوصاً في رثائه للمعتمد، فلم يصطفع له الفضائل على طريقة  
الجاهليين أو سواهم من المشارقة، بل خاطبه وكأنه حيٌّ يسمع  
ويبصر، وكأن صورته وأعماله ما زالت ماثلة أمام ناظريه، لأنها لا  
تنسى لعظمتها...

### **التهاني:**

وهي من شعر المناسبات، وترتبط مثل هذه القصائد بالحوادث العظيمة، أو المشاهد المؤثرة التي تظهر فيها عظمة السلطان، كالعودة من سفر، أو من معركة، أو من حجٍّ. أو بمناسبة زواج أو قدوم

مولود وما يشبه ذلك، مناسبات يستغلها الشعراء والمقربون ليزدادوا تقرباً وليعززوا مكانتهم لدى الحكام، يقول ابن الخطيب في آخر سنة 774 هـ مهتتاً السلطان أبا حُمَّو سلطان تلمسان<sup>(١)</sup>:

وقف الغرام على ثناك لسانِي  
رعياماً أوليتَ من إحسانِ  
فكانما شكري لما أوليته  
شُكُرُ الرياض لعارض النسيان...  
الشمس أنت قد انفردت وهل يُرى  
بين الورى في مطلع شمسان  
ويبدت سعوتك مستقيماً سيرها  
وعلت فقرأً أمامها النحسان  
فاستقبل السعد المعاود سافراً  
عن أي وجه للرضى خسان  
وابغ المزيد بشكر ربك ولتشق  
بمضاعف الإنعام والإحسان  
ثم السلام عليك يزري عرفه  
طيباً بعرف العود والبلسان

فمن ناحية المضمون، يبدو أنه لم يخرج عن الأطر التقليدية، في التهتة، من الثناء والشكر وقد أجاد في استحضار صورة الرياض وفي ذلك ما يذكرنا بإدخال عنصر الطبيعة في الأغراض المختلفة، وهو مع

---

(١) نفع الطيب: ٥٠٠ / ٦

ذلك يمدح فلا انفصال بين المدح والتهنئة. وممدوحه شمس، وهو واحد زمانه متفرد بصفاته، لا تضاهيه الشمس الحقيقة فهو يحجبها إذا بُرِزَ، وهذا المعنى، معنى التوحد والتفرد، قد سُبِقَ إليه، وهو مشهور عند المشرقيين وخصوصاً عند المتنبي وكذلك ابن الرومي وغيرهما كثيراً من جاء بهذا المعنى. يقول المتنبي في سيف الدولة<sup>(١)</sup>:

فَذَا الْيَوْمُ فِي الْأَيَّامِ مِثْكَ فِي الْوَرَى  
كَمَا كَنْتَ فِيهِمْ أُوحْدَأَ كَانَ أُوحْدَأ

والتشبيه بالشمس بعد ذاته من الصور القديمة جداً تداولها الشعراء كثيراً فشبهوا الحبية بالشمس، والممدوح ورفعوا من درجته على الشمس الحقيقة يقول المتنبي<sup>(٢)</sup>:

أَحْبَكَ يَا شَمْسَ الزَّمَانِ وَبِنَرَهَ  
وَإِنْ لَامْنَى فِيكَ السُّهْلَا وَالْفَرَاقْدُ

وقال أيضاً<sup>(٣)</sup>:

كَنْ حَيْثُ شَئْتْ تَسْرُّ إِلَيْكَ رَكَابِنَا  
فَالْأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَأَنْتَ الْأَوْحَدُ

ولا ينسى الشاعر في معظم الأحيان، أن يربط الحدث بخلفية دينية، فتحصيل المزيد من المجد والرفة، ينبغي أن يقابل بشكر الله

---

(١) ديوانه: ١/٢٨٦.

(٢) ديوانه: ١/٢٨٠.

(٣) ديوانه: ١/٣٣٦.

ليتضاعف الفضل، وتزداد النعم.

أما من حيث الشكل، فواضح أن هذه الأبيات تتضمن بعض الصور البينية كالاستعارات (شكر الرياض) و(عارض النسيان)، (وفر النحسان)، و(السلام يزري عرفه...) والتشبيهات كقوله: (الشمس أنت) والمجاز في (شمسان). ولا ريب في أن هذه الصور قد لعبت دوراً في التأثير وإبلاغ المعاني.

## الغزل:

غزلاته، فيما يبدو لي، من خلال ما طالعته من أشعاره قليلة، إلا أن ما وقع تحت عيني، فيه من الرشاقة والعذوبة، ما يجعله مقدماً - على قوله - على بعض الأغراض الأخرى، يقول<sup>(١)</sup>:

إن اللحاظ هي السيف حقيقة

ومن استراب فحجتي تكفيه  
لم يدع غمد السيف جفناً باطلًا  
إلا لشبه اللحاظ يغمد فيه

وقال أيضاً:  
دعوتُك للود الذي جنباته  
تداعت مبانيه وهمت بأن تهـي  
وقلت لعهد الوصول والقرب بعـدما  
تناءـي وهـل أسلـو حـياتـي وأـنـتـ هـي

---

(١) نفح الطيب: ٥٠٣ / ٦.

ومن شام من جو الشيبة بارقاً  
ولم تنهه عن النهي كيف يتهي  
والمعنى الوارد في البيتين الأولين، معنى تقليدي من حيث  
تشبيه العين بالسيف وبالسهم.

والتكلف واضح في الآيات الثلاثة التالية، في المجانسة  
بالآيات الثلاثة: (بأن تهـي، وأنت هي، يتـهـي).

ومن غزله الرقيق قوله<sup>(١)</sup>:

عذبت قلبي بالهوى فقيـامـه  
في نـار هـجـرـك دائمـاً وقـعـودـهُ  
ولقد عـهـدت القـلـبـ وـهـ مـوـحـدـ  
فعـلامـ يـقـضـىـ في العـذـابـ خـلـودـهـ

وقد مـزـجـ بيـنـ فـكـرـهـ الـدـيـنـيـ وـبـيـنـ عـلـاقـتـهـ بـالـحـبـيبـ.

ومن راق شـعـرهـ فـيـ الغـزـلـ قوله<sup>(٢)</sup>:

أصـبـحـ الخـدـ مـنـكـ جـنـةـ عـدـنـ  
مجـتـلـىـ أـعـيـنـ وـشـمـ أـنـوـفـ  
ظـلـلـتـهـ مـنـ الجـفـونـ سـيـوـفـ  
جـنـةـ الـخـلـدـ تـحـتـ ظـلـ السـيـوـفـ

---

(١) نـفـعـ الطـيـبـ: ٤٩٨/٦.

(٢) نـفـعـ الطـيـبـ: ٤٧٢/٦.

وقد جمع في هذين البيتين ما يستحسن من المرئيات والمشمومات، عن طريق التشبيه الحسن. فالخد جنة للناظر، ومبعد سرور لمن يشم، والجفن كالسيف، كل ذلك كناية عن حسن ذلك الوجه.

وفي الطرف والحلواة يقول<sup>(١)</sup> :

أرسلت طرقني في حلاك بنظرة  
هي كانت السبب الغريب لما بي  
وأراك بالعبارات قد عاقبتها  
ليس الرسول بموضع لعصاب

وهو يعبر عن شوقه وتحرقه للقاء الأحبة، فالنار في القلب  
تضطرم، والنفس في لوعة ولا يدرى ماذا يفعل يقول<sup>(٢)</sup> :

عيني جنت فعلام تحرق أضلعي  
أ بما جنى جار يُعذب جار  
يا قلب لا تدهشك نيران الهوى  
فكثار إبراهيم تلك النار  
فاصبر على ما حملوا تسل المنى  
بالسبك أدرك نقشه الدينار

وفي مثل ذلك يقول متشوقاً :

(١) نفع الطيب: ٤٧٢/٦.

(٢) المقطوع عنان في نفع الطيب: ٥٠٧/٦.

برى جسدي فيكم غرام ولو عة  
إذا سكن الليل البهيم ثور

فلولا أيني ما اهتدى نحو مضجعي  
خيالكم بالليل حين يزور  
ولو شئت في طي الكتاب لزرتكم  
ولم تدر عنّي أحرف وسطور

في الأبيات الثلاثة الأولى، يظهر وجه الشاعر وغرامه، وهو،  
يدعو نفسه إلى الصبر واحتمال الآسى، ويخلص بحكمة مفادها أن  
لا راحة إلا بعد جهد وتعب. أما نار قلبه فهي لاذعة، ويشبهها بالنار  
التي ألقى فيها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مبالغة في وصفها  
وفي مدى تلهبها واضطراها. وفي المقطوعة التالية يعبر عن مأساة  
البعد وحرارة الشوق، وقد أجاد في البيت الثالث في معنى الزيارة  
عبر الأثير في طي الكتاب.

### الزهد:

وكما كان له في الأغراض السالفة، أدلى بدلوه في الزهد  
والتصوف والرثاء لحاله والرجوع إلى الله والتبرؤ من ذنبه،  
خصوصاً عندما تقدمت به السن، وبعد نكبته الأولى.

من أغراضه الصوفية قوله<sup>(١)</sup>:

(١) نفع الطيب: ٦/٥٠٤.

لا تنكروا إن كنت قد أحبتكم  
أو أنتي استولى على هواكم  
طوعاً وكرهاً ما ترون فإنني  
طفت الوجود فما وجدت سواكم

ويقول<sup>(١)</sup> في الدنيا:  
دنيا خدعـتِ الذي سفرـت له  
عن صفحـةِ لم يحل بها كرم  
سرقـت حظـ الإله من يدهـ  
فهـان ما كان منهـ يحترـم  
هـذا الذي نـال منكـ ليس لهـ  
منقطـعـ دائـمـ و منصرـمـ  
وهـبـهـ نـال الذي أرادـ أـمـاـ  
يـنـ يـديـهـ المـشـيبـ والـهـرمـ  
فـماـ العـمـرـ إـلاـ كـالـحـلـمـ،ـ وـالـدـنـيـاـ لـاـ تـبـقـىـ عـلـىـ حـالـ،ـ  
وـالـإـنـسـانـ مـنـقـلـبـ إـلـىـ الشـيـبـ وـالـهـرمـ وـمـهـمـاـ نـالـ مـنـ الدـنـيـاـ سـتـنـالـ  
مـنـهـ،ـ وـيـرـىـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ أـنـ حـبـ الدـنـيـاـ مـعـ مـعـرـفـةـ مـاـ سـيـؤـولـ إـلـيـهـ  
مـصـيرـ الـمـرـءـ،ـ أـمـرـ لـاـ يـجـلـبـ إـلاـ الـهـمـ وـالـبـلـاءـ فـيـقـولـ<sup>(٢)</sup>ـ:  
وـالـلـهـ إـنـ لـمـ يـدـارـكـهاـ وـقـدـ وـحـلتـ  
بـلـمـحةـ:ـ أـوـ بـلـطـفـ منـ لـدـنـهـ خـفـيـ

(١) نفع الطيب: ٤٨٩/٦.

(٢) نفع الطيب: ٤٨٩/٦.

ولم يجد بلافها على عجلٍ  
ما أمرها صائر إلا إلى التلفِ  
ومن مواعظه التي تدل على اختباره الدنيا وما فيها من بلاء  
قوله<sup>(١)</sup>:

خذ من حياتك للمات الآتي  
ويدار ما دام الزمان مواتي  
يا من يؤمل واعظاً ومذكراً  
يوماً ليوحظه من الغفلاتِ  
هلا اعتبرت ويَا ويلها من عبرةٍ  
بمدافنِ الآباء والأمهات  
قف بالقبيع وناد في عرصاته  
فلكلم بها من جمرة ولدات  
وهكذا تسير هذه القصيدة على هذا النحو، فيتنتقل الشاعر،  
بالحديث، ما بين الموت والحياة، وما يتتظر الإنسان بعد موته،  
ويذكر باحتمالية الانتقال من حال الحياة إلى الآخرة حيث يُسأَل المرء  
عما قدم، فيكتشف عندئذٍ أنه فرط في حق نفسه كثيراً، والإنسان  
جدير بأن يبكي على نفسه، لأنه لي يجد من يبكي عليها، فالعالق  
من أدرك ذلك فيقول<sup>(٢)</sup>:

(١) نفع الطيب: ٦/٣٢٢.

(٢) نفع الطيب: ٦/٣٢٦.

إذا لم أنح يوماً على نفسي التي  
 بجرائمها أحببت كل حبيبٍ  
 وقد صع عندي أن عادية الردى  
 تدب لها والله كل دبيبٍ  
 فمن ذا الذي يبكي عليها بأدمعي  
 إذا كنت موصوفاً برأي لبيبٍ

وفي التصوّف يقول<sup>(١)</sup>:

أعشاق غير الواحد الأحد الباقي  
 جنونكم والله أعياناً على الراقي  
 جنتهم يفنى وتبقى مضاضةٌ  
 تعذب بين البيん مهجة مشتاقٍ  
 وتربط بالأجسام نفساً حياتها  
 مباينة الأجسام بالجوهر الراقي  
 وخلوا لهيب الشوق يطوي بها الفلا  
 إلى الوجود في مسرى رموز وأذواقٍ  
 فما هو إلا أن تحط رحالها  
 بمنشوى التجلّى والشهود بإطلاقٍ  
 وهكذا فالحب عنده زيف ما لم يكن الله الواحد الباقي الذي لا  
 يموت، فالنفس لا بد مقارقة للجسم، فليعمل المرء على أن تفارق  
 إلى حيث تجد السعادة. «بمنشوى التجلّى والشهود بإطلاق».

---

(١) نفع الطيب: ٦/٢٩٠.

وسنعود إلى بحث التصوف عند الحديث عن كتاب «الروضة».

## أغراض متفرقة:

نظم في أغراض مختلفة على سبيل التورية والتجنسي، على طريقة أهل المشرق: يقول<sup>(١)</sup>:

ما لي أهذب نفسي في مطامعها  
والنفس تأنف تهذيبي وتهذبي بي  
إذا استعنست على دهري بتجربة  
تأبى المقادير تجربتي وتجري بي

ومن التورية قوله<sup>(٢)</sup>:

مضجعي فيك عن قنادة يروي  
وروى عن أبي الزناد فؤادي  
وكذا النوم شاعر فيك أمسى  
من دموعي بهيم في كل وادي

وفي التضمين يقول<sup>(٣)</sup>:

رفعت قصة اشتياقي ليعي  
فزوى السوجه رافضاً للفتوة

(١) نفح الطيب: ٤٨٨/٦.

(٢) الآيات في نفح الطيب: ٤٦٣/٦. قنادة من رواة الحديث وكذلك أبو الزناد، وقنادة شجرة ذات شوك. والزناد: الذي يقدح النار.

(٣) نفح الطيب: ٤٦٦/٦.

ورمى بالكتاب ضعف اهتمال  
(قلت يحيى خذ الكتاب بقوه)

وفي تضمين المثل:  
لا تهنج بالذكر في كبدي  
ناراً وجدي شق محتملة  
ويقول الناس في مثل  
(لا تحرك من دنا أجلة)

وقال في رجل يحتال على الولاية:  
حلفت لهم بأنك ذو يسارٍ  
وذو ثقةٍ وبرٌ في اليمين  
ليستدوا إليك بحفظ مالٍ  
فأكل باليسار وباليمين

**ثانياً: الموشحات:**

الموشح من الفنون الشعرية التي استحدثها متأخر و الأندلسين،  
ويجمع أهل الأدب والمؤرخون أنَّ أهل الأندلس هم الذين اكتشفوا  
هذا اللون الفني في الشعر. فابن بسام يعتبر أنهم هم الذين وضعوا  
حقيقة صنعة التوشيح<sup>(١)</sup>، وكذلك يرى ابن خلدون من أنَّ أهل

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١.

الأندلس كانوا «ينظمونه اسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها ومن أغراضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متالياً فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصان، وينسبون فيها ويمدحون، كما يفعل في القصائد»<sup>(١)</sup>. وينسب ابن خلدون فن الموشح إلى مقدم بن معافر القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ ذلك عنه ابن عبد ربه صاحب العقد.

ولكن موشحاتهما كسدت ولم تذكر، فكان أول من برع في ذلك الفن بعدهما عبادة الفزار شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية. ومهما كان من شأن الاختلاف حول شخصية مخترع هذا الفن، فإن ذلك لا يعني من الإقرار بوجود هذا اللون، وقد نشأ حسب ما ذكر ابن خلدون في أواخر القرن الثالث الهجري، ثم تكاثر الشعراء الذين ضربوا فيه بنصيب من أمثال: الأعمى التطيلي، ويحيى بن بقي، وأبو بكر بن الأبيض وأبو بكر بن باجه، وفي دولة الموحدين اشتهر محمد بن أبي الفضل بن شرف وابن مؤهل، وأبو بكر بن زهر الذي يقول:

ما للموله من سكره لا يغيق يا له سكران  
من غير خمر ما للكنيب المشوق يندب الاوطان

ومن بعده ابن حيون وابن حزمون بمرسيه، وأبو الحسن

(١) مقدمة ابن خلدون ١١٣٧.

سهل بن مالك بغرناطة، وفي إشبيلية أبو الحسن بن الفضل الذي يقول:

واحسرتني لزمان مضى  
عشبة بسان الهاوى وانقضى  
وافردت بالرغم لا بالرضى  
ويت على جمرات الغضا  
أعائق بالفکر تلك الطلول  
وألثم بالوهם تلك الرسموم  
وممن يذكر أبو بكر بن الصابوني، ثم من من اشتهروا ببر العدوة  
ابن خلف الجزائري وابن خزر البجائي. ومن محاسن  
الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها  
يقول<sup>(١)</sup>:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى  
قلب صب حل عن مكتسى  
 فهو في حر وخفق مثلما  
لعب ريح الصبا بالقبس  
وقد نسج على منواله الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر  
الأندلس والمغرب لعصره<sup>(٢)</sup> فقال معارضًا:  
جادك الغيث إذا الغيث همى  
يا زمان الوصل بالأندلس

(١) نفع الطيب: ١١/٧.

(٢) نفع الطيب: ١١/٧.

لَمْ يَكُنْ وَصْلَكَ إِلَّا حَلْمًا  
 فِي الْكَرَى أَوْ خَلْسَةِ الْمُخْتَلِسِ  
 إِذْ يَقُودُ الدَّهْرَ أَشْتَاتَ الْمَنْيَ  
 يَنْقُلُ الْخَطْوَ عَلَى مَا يَرْسُمُ  
 زَمَرًا يَبْسُنْ فَرَادِيًّا وَثَنَاءً  
 مُثْلِمًا يَدْعُوا الْوَفُودَ الْمَوْسُمَ  
 وَالْحِيَا قَدْ جَلَ الْرُّوْضَ سَنَاءً  
 فَتَغُورُ الزَّهْرَ مِنْهُ تَبْسُمَ  
 وَهَذِهِ الْمَوْشِحَةُ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْفَنِ، وَقَدْ جَمَعَ  
 فِيهَا بَيْنَ الْمَدْحُ وَالْغَزْلِ وَالْوَصْفِ وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ لِسَانَ  
 الدِّينِ يَؤْكِدُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ خَلْدُونَ وَغَيْرُهُ عَنْ أُولَئِكَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ فِي  
 اكْتِشافِ الْمَوْشِحَاتِ فَيَقُولُ: «وَمَا قَلْتَهُ مِنْ الْمَوْشِحَاتِ الَّتِي  
 انْفَرَدَ بِاِخْتِرَاعِهَا الْأَنْدَلُسِيُّونَ وَطَمَسُوا الْآنَ رَسْمَهَا»<sup>(١)</sup> :  
 رُبَّ لَيْلٍ ظَفَرَتْ بِالْبَلْدَرِ

وَنَجْمُومُ السَّمَاءِ لَمْ تَدِرِ<sup>(٢)</sup>  
 حَفَظَ اللَّهُ لِيَنْسَا وَرَعَى  
 أَيِّ شَمْلٍ مِنْ الْهَوَى جَمَعَ  
 غَفْلَ الدَّهْرَ وَالرَّقِيبَ مَعَا

(١) نَفْعُ الطَّيْبِ: ٦٥/٧ وَأَزْهَارُ الرِّيَاضِ: ٣١٤/١.

(٢) وَالْمَوْشِحَةُ هَذِهِ تَأْنِي بِكَامِلِهَا فِي الْمُخْتَارَاتِ، وَهِيَ فِي النَّفْعِ: ٦٦/٧.

ليت نهر النهار لسم يحر  
حکم الله لي على الفجر

ومن موشحاته<sup>(١)</sup> قوله:

كم ليوم الفراق من غصنه  
في فؤاد العبيد  
ترفع الأمر فيه والقضى  
للسولسي الحميذ  
رحل الراكب يقطع اليدا  
بسفيين النفاق  
كل وجلاء تتلىع الجيذا  
وبذالرفاق  
حسبت ليلة اللقا عيذا  
فهي ذات اشتياق

أما الموشحة الأولى فإن الطبيعة الخلابة في الأندلس، تخيال  
بين سطورها وأبياتها، وتهادى بين غصونها وأسماطها، فالليل  
يجمع العاشقين بعيداً عن الرقباء، ويتمنى الشاعر عدم طلوع النهار،  
وهو يستمتع وأمامه الماء والأشجار والأصوات العذبة، أصوات  
البلاد والقيان، ويطلع الصبح، ليعلنها مدحه في بني نصر ملوك  
غرناطة من بني الأحمر، فهم زينة الناس وحمة الدين، وزينتهم  
يوسف الذي يفضل غيره من الملوك كفضل الربيع على الفصول،

---

(١) نفح الطيب: ٦٧/٧.

ويخلص لسان الدين إلى تهتة ملكه بالعيد.

إن هذه الموسحة من حيث المعنى لا تختلف عن القصائد الشعرية التقليدية، فال مدح والتهتة والطبيعة كلها تتدخل في هذه الموسحة، ولكن الإطار الفني هو مختلف فقط، والأفكار الثانوية تقليدية هي أيضاً ف تكون السلطان أو الملك «إمام الهدى» و«عماد العلا» أو تشبيهه بالغمام، كل ذلك تقليدي، إلا ما كان من تشبيهه بالربيع، فذلك على الطريقة الأندلسية، فهم، وكما أشرنا، مزجوا بين الطبيعة وأغراضهم الشعرية، وخصوصاً الغزل والتهتة، مما أضفى على أعمالهم بهجة وخفة ورشاقة وألواناً لا نجد لها في الأعمال المشرقية، فكيف إذا وجد ذلك المزج وفي إطار الموسح؟!

وفي الموسحة الثانية يتحدث عن الفراق، ويشكو الأمر إلى السلطان متوجهاً بحبه له.

وإذا علمنا أن لسان الدين قد ألف كتاباً في هذا الفن سماه «جيش التوشيع»، وجمع فيه الغرائب، وقد ذيل عليه وزير القلم بالمغرب عبد العزيز بن محمد القشتالي، بكتاب سماه «مدد الجيش»، واستهله بقوله بأن لسان الدين جمع في كتابه أكثر من ثلاثة مائة موسحة «لأهل العصر في أمير المؤمنين ولامير المؤمنين». ونظرأً لجودة موسحات ابن الخطيب، فقد تنافس الشعراء في معارضتها وخصوصاً تلك التي أشرنا إليها ومطلعها: «جادك الغيث» . . .

فقد عارضها وافق من أهل مكة يُقال له «أبو الفضل بن محمد

العقاد<sup>(١)</sup> وكذلك عارضه<sup>(٢)</sup> السلطان المنصور ابو العباس:

وليالي الشعور إذ تسري

مالنهر النهار من فجر

حباً الليل طال لي وحدي

لو تراني جعلته بُردي

خلاصة عامة حول شعر ابن الخطيب وموشحاته:

من خلال ما تقدم، يظهر أن لسان الدين، قد سار على النهج التقليدي في الشعر، إذ تمثل أشعار المشرقيين وحذا حذوهم في الصور والمعاني والأساليب. إلا أنه زاد على الأغراض المعروفة فناً جديداً آخر وهو الموشح، والموشح في الأصل فن يقوم على العفوية أي بالبعد عن التكلف، فإذا تكلف فيه فقد رونقه وعدوبته، لذلك، فإن موشحات ابن الخطيب على العموم، وخصوصاً ما أشرت إليه في هذه الدراسة، تخلو من التكلف، وما ورد فيه من بديع فكان عفو الخاطر موفقاً، أما البيان، فقد عرف لسان الدين كيف يطّبع الصور المختلفة لخدمة أغراضه، بشكل لا يخرج الصور عن المألف من حيث الوضوح والموسيقى، لثلا يفقد الموشح مبرره لأنّه وجد أصلاً ليغني.

(١) نفح الطيب: ٦٨/٧.

(٢) نفح الطيب: ٧٣/٧.

## الفصل الرابع

### نشره

#### ١ - النثر قبل لسان الدين:

مهما تباعدت البلاد الناطقة بالعربية ومهما اختلفت عاداتها وتقاليدها، فإن ثمة روابط مشتركة، لا يستطيع أحد أن يتجاهلها على الصعيد الفكري والثقافي والاجتماعي، وما يهمنا هنا، ما توفره اللغة العربية للناطقين بها من عوامل المساعدة والدفع نحو الكتابة والتأليف والنظم أيضاً، إنها عبقرية اللغة العربية بعنادها من حيث اتساع دوائر الاشتراق والمترا逍فات ثم من حيث أساليبها وصورها الفنية الرائعة التي لا تجد لها مثيلاً في اللغات الأخرى في مختلف أنحاء العالم، وإذا كانت بغداد عاصمة العلم والفكر إلى ما قبل سقوطها على يد المغول، فإن مصر والأندلس قد حافظ كل منهما على مكانته وخصوصاً بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ، وهكذا ومع كل ما جرى من تطورات سياسية وتغيرات فكرية ودينية، فإن سمات

الأدب العربي البارزة تبقى هي نفسها في الأقاليم العربية المختلفة، مع تغير طفيف بتأثير البيئة الجغرافية، والانفتاح على الأجناس الأخرى. أما فيما يتعلق بالأندلس، فإن المعالم الأدبية، ولا سيما الخاصة بالنشر لم تتضخ إلا في القرن الرابع للهجرة، ولا يعني ذلك أنه لم يكن هناك نشر قبل ذلك بل كان نشر كثير ولكن لم يرق إلى درجة ما عُرف في العصر العباسي في المشرق. وأهم المحاولات التأثيرية في الأندلس، والتي تعتبر في مصاف الدرجة الأولى: العقد الفريد لابن عبد ربه وقد ألفه في القرن الرابع الهجري، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي، وبدأ الكتاب يتنافسون في الصناعة والإنشاء، وأهم ميدان عملوا فيه دواعين الحكماء وذوي السلطة، فيبرز كتاب مميزون في الرسائل الديوانية وغير ذلك، ومن كتاب القرن الرابع ابن شهيد الذي تأثر بالهمذاني من المشرقين وبالصابئي، وكان يميل إلى الغريب والمبالغة.

وفي عصر الطوائف، حيث تعددت الدول وكثرت المنازعات، انعكس ذلك على الأدب فتطور تطوراً ملحوظاً، وترقت الحركة الأدبية رقياً عظيماً، وصار الحكماء يتذبون أفضل الكتاب للقيام بمهام الكتابة والوزارة، والملاحظ أن الرسائل في هذه الفترة غالب عليها السجع والصنعة، ومن الكتاب المشهورين ابن برد الأصغر، الذي يسير على خطى المشارقة قليلاً وقائلاً. ثم ابن زيدون الذي يضعونه في مقدمة كتاب العصر وشعرائه أيضاً، ومع تقدمه فإنه قلد السلف ومن قلدهم الجاحظ في رسالته الهزلية<sup>(١)</sup> التي يسخر فيها

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ٣٣٠.

من ابن عبدوس، فأكثر فيها الحكم والأمثال، ومن تضمين الشعر،  
والآيات الكريمة.

أما في عصر المرابطين، فقد شهدت الكتابة الفنية جموداً،  
بسبب تشدد الحكام المغاربة مع المفكرين وخصوصاً المتكلسين،  
وتغير الحال قليلاً أيام الموحدين في منتصف القرن السادس  
لعنتهم بالعلوم العقلية، وتستمر الحال هكذا متقلبة حتى القرن  
السابع أيام دولة بنى هود ودولة بنى الأحمر في غرناطة، فشهدت  
الحركة العقلية تقدماً، إلا أن الأدب لم يتطور كثيراً، لأن الفقهاء في  
ذلك الوقت هيمنوا على الإدراة وعلى الحكم، فوصل عدد كبير  
منهم إلى درجة كاتب ووزير، مما طبع الشرط بطبع علمي يغلب عليه  
الجفاف والسجع، ومالوا إلى استعمال البديع من جناس وطباق،  
حتى في كتابة التاريخ والسير والترجم كـما في «الذخيرة» لابن  
بسام، و«فتح الطيب» و«أزهار الرياض» للمقربي، وكان هذا الأخير  
أقل المذكورين في التصنّع.

## ٢ — نثر لسان الدين:

كان لسان الدين كأبيه، إذ نبغ في العلوم المختلفة كما أشرنا  
سابقاً، ولعله من المفيد أن نذكر هنا ما ساقه ابن خلدون في  
ترجمته: «قرأ وتأدب على مشيخة غرناطة، واحتضن بصحة الحكيم  
المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في  
الطب، وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وأمتلاً حوض السلطان  
من نظمه ونشره مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسليل بحيث

لا يجاري فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر لعصره، وملا الدنيا بعما ناداه وانتشرت في الأفاق، فرقاً السلطان إلى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدويين في النظم والشعر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة<sup>(١)</sup>.

وما لبث أن استبد بالوزارة وبرئاسة الكتاب واستقل بهما، وصدرت عنه غرائب فن الترسيل<sup>(٢)</sup> وخصوصاً أيام «الغنى بالله» أبي عبد الله، مما مهد له السبيل ليكون أعظم كتاب عصره، مما دفع صاحب نفح الطيب أن يخصص له وأخباره ثلاثة مجلدات، استعرض فيها حياته وأعماله وشيوخه وتلاميذه، وأخباره عموماً مع شواهد كثيرة ومحاترات من نثره وشعره. أما كتاباته التشرية فلم تقتصر على الرسائل الديوانية، أو الإخوانية، بل تعداها إلى تأليف الكتب<sup>(٣)</sup> المطولة والرسائل المتخصصة التي تتمتع بأسلوبها العلمي الرصين كالتأريخ والفقه والطب والنحو والموسيقى وغير ذلك من الموضوعات، إلا أنه لم يتخل عن استعمال السجع في معظم مؤلفاته، ولو أنه حاول أحياناً أن لا يلتزم ذلك، وخصوصاً في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة».

## أ — رسائله:

تتراوح رسائله بين رسائل ديوانية، ورسائل إخوانية من تهنته

(١) تاريخ ابن خلدون: ٣٣٢/٧، ونفح الطيب: ٥/٩٧.

(٢) نفح الطيب: ٥/٩٧.

(٣) راجع ص ٣٧ من هذا الكتاب.

وعزاء، وكذلك له رسائل في الوعظ والإرشاد، وله وصايا ومن أشهرها وصيته لأولاده. ورسائله إجمالاً تمتاز بالإطناب المسرف، والتكرار الزائد من غير ضرورة أو فائدة، مما يؤدي إلى الإملال، لذلك قال عنه بعض نقاده: «هو كاتب متسلل بلينج لولا ما في إنشائه من الإكثار، الذي لا يخلو من عثار، والإطناب، الذي يفضي إلى الاجتناب، والإسهام، الذي يقد الإهاب»<sup>(١)</sup>. هذه الظاهرة، الإطناب، قد أخذتها عن المشارقة من المتصنعين، كما أخذ ظاهرة أخرى وبشكل أقل ظهوراً من الإسهام ألا وهي استخدامه لبعض المصطلحات اللغوية العلمية بطريقة متكلفة مصطنعة جافة، كالقواعد والمباني والجمل والحدود، وهو مع ذلك لم يهمل السجع في أكثر رسائله. واللافت للانتباه في سجعه، أنه يعتمد حرفاً معيناً في السجع ولا يكاد يفارقه في بعض رسائله، ثم إنه يسجع ضمن السجعة الواحدة سجعتين جزئيتين، وبذلك تفوق على أفرانه ومن ذلك ما كتبه في رسالة عن سلطانه إلى خليفة الموحدين بالأندلس يقول<sup>(٢)</sup> في مقدمتها: «الخلافة التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أنسه الأخلاف، ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم، الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكتاف،

(١) نفع الطيب: ٢٦/٩.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف: ٣٣٥.

فامتزاجنا بعلنها المنيف وولانها الشريف، كما امتزج الماء  
والسلاف... .

ومن رسالة أخرى<sup>(١)</sup> وجهها على لسان سلطانه الغني بالله بعد  
عودتهما من المغرب إثر المحنة الأولى إلى سلطان مصر والشام  
وملك الحرمين المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاون قال فيها:  
«ولما صير الله إلينا تراثهم الهنيء، وأمرهم السندي، وبناءهم العادي،  
وملكهم الجهادي، أجرانا - وله الطول - على سنتهم، ورفع  
أعلامنا في هضابهم المشرفة وقنتهم، وحملنا فيهم خير حمل، ونظم  
بنا لهم أي شمل، وأليس أيامنا سلماً فسع الدارة، وأحکم الإدارة،  
وهنا الإمارة... .»

يتبيّن مما ورد في هذه المقطوعة أن السجع فيها من النوع  
المألف غير المركب، وفواصله قصيرة، ولعله لم يعمد إلى التركيب  
المعقد، كما في المقطوعة السابقة، لأن الرسالة موجهة إلى سلطان  
مصر والشام، ولا داعي للمزيد من التكليف فيها، غير أنه لم يهمل  
في القطعتين الجناس الناقص، ولا يعني ذلك أنه يتلزم التجنيس في  
كل رسالة من رسائله، فهو لا يقييد بمنهج، بل يتغنى في ما بينها  
ويحط الرحال حيث يطيب له.

ومن نثره<sup>(٢)</sup> العذب ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج  
يوسف بن نصر إلى سيدنا محمد صلوات الله عليه إثر شعر:

(١) نفع الطيب: ٩٠ / ٥

(٢) الرسالة بكمالها مع الشعر في نفع الطيب: ٦ / ٣٥٤

«إلى رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوة وأدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب، وطبيب أدواء القلوب، والوسيلة إلى علام الغيوب،نبي الهدى الذي طهر قلبه...» وينتقل بعد هذا الثناء إلى ذكر سلطاته فيقول:

«من عتيق شفاعته، وعبد طاعته، المعتصم بسيبه، المؤمن بالله ثم به، المستشفى بذكره كلما تألم... المتسل بـه إلى رضى الله ربه، يوسف بن إسماعيل بن نصر؛ كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح، وخـيل الـوـجـد ذات جـمـاح، عن شـوق يـزـداد كلـما نـقـصـ الصـبـر...».

ويتابع معبراً عن شوق سلطاته للقاء خير البشر، شاكياً إليه طالباً الصفح والعذر، ثم يدعو الله تعالى أن يمكنه من زيارة النبي ﷺ، يقول: «... فـما أـسـعـدـ مـنـ أـفـاضـ مـنـ حـرـمـ اللهـ إـلـىـ حـرـمـكـ، وـأـصـبـحـ بـعـدـ أـدـاءـ مـاـ فـرـضـتـ عـنـ اللهـ ضـيـفـ كـرـمـكـ، وـعـفـرـ الـخـدـ فـيـ مـعـاهـدـكـ وـمـعـاهـدـ أـسـرـتـكـ، وـإـنـ لـمـ عـاقـنـيـ عـنـ زـيـارـتـكـ العـوـاتـقـ، وـإـنـ كـانـ شـغـلـيـ عـنـكـ بـكـ، وـعـدـتـنـيـ الـأـعـدـاءـ فـيـكـ عـنـ وـصـلـ سـبـيـ بـسـبـيـكـ وـأـصـبـحـ بـيـنـ بـحـرـ تـلـاطـمـ أـمـواـجـهـ وـعـدـوـ تـكـافـفـ أـفـوـاجـهـ، وـيـحـجـبـ الشـمـسـ عـنـ الـظـهـيرـةـ عـجـاجـهـ، فـيـ طـائـفةـ مـنـ الـمـؤـمـنـيـنـ بـكـ وـطـنـواـ عـلـىـ الصـبـرـ نـفـوسـهـمـ...».

ثم يختتم الرسالة بالدعاء وطلب العون، وبالصلوة والتسليم. والملحوظ أن الرسالة تزخر بالسجع، والتجنيس، والاقتباس من

الآيات الكريمة: «فلا تفردنا ولا تهملنا، وناد ربك فينا 『ربنا ولا  
تحملنا』»<sup>(١)</sup>.

ومن رسالة<sup>(٢)</sup> خاطب بها الفقيه أبا القاسم بن رضوان: «...  
ورأيت الخط يبهر والحظ يبهر والحمد لله تعالى ويروق، واللفظ  
الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بُروق، قلت: ارتفع  
الوصب، وردَّ من الصحة المفترض، وألة الحس والحركة هي  
العصب، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه، والروح  
خليط البدن والمرء بخلطيه، وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلا  
الشرح، ففيه يسكن الظما البرح، وعذراً عن التكليف فهو محل  
الاستقصاء والاستفسار، والإطناب والإكثار...».

ولا يخفى على الناظر ما في المقطوعة أعلاه من السجع  
المتكلف والإطناب الذي اعترف به الكاتب واعتذر، فضلاً عن  
مصطلحات فلسفية سخرها للتعبير عن حال صحيحة فأدخل الفلسفة  
بالطبع....

## ب — المقامات:

المقامة في اللغة هي المجلس، والсадة، والجماعة من الناس  
إذا التقوا. وتتطور مفهوم المقامة إلى أن صارت تعني الأقصوصة،

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٢) نفح الطيب: ٦/٤٣.

والاحدوة من الكلام. ويعتبر بدیع الزمان الهمذانی المتوفی سنة ٣٩٨ھ، أول من فتح عمل المقامات، ثم تلاه الحریری، وتمیزت المقامات في هذا العصر، بما كانت تحمله من الغرائب اللغوية، وضروب الصنعة من البدیع والبيان، هذا من حيث الشکل، أما من حيث المضمون، فكانت على صورة حکایة، تستهی إلى عبرة أو عظة، وتدور الحکایة على لسان شخصية خیالية، واتخذت المقامات في المشرق بعد ذلك منحی آخر، فصارت تتضمن موعظة أخلاقیة، ثم صارت تخلو من الكدیة أو الاستجداء، وابتعدت عن التکلف والتصنیع، كما في مقامات الزمخشري.

اما في الأندلس، فقد تأثر الأندلسيون بما روی عليهم من مقامات المشرقيین، ومنهم محمد التمیمی السرقسطی المتوفی بقرطبة سنة ٥٣٨ھ، ومن كتاب المقامات الأندلسيین في القرن السادس الأدیب محارب بن محمد الوادی آثی، لتصل إلى أيام دولة بنی الأحمر في القرنین السابع والثامن، وكان ابن الخطیب من برزوا في هذا الفن وأدلى بدلواه فيه، ومن مقاماته: معيار الاختیار في أحوال المعاهد والديار<sup>(١)</sup>، وخطرة الطیف ورحلة الشتاء والصیف<sup>(٢)</sup>، ومقامة السياسة.

اما مقامته في السياسة، فقد جعلها تدور بين اثنین من الأبطال:

(١) هذه المقامۃ وصف بعض مدن المغرب وبعض مدن مملکة غرناطة.

(٢) يصف فيها رحلة تفتیشیة قام بها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف (٧٣٣ھ - ٧٥٥ھ)، في أنحاء مملکة غرناطة وبصحبته الوزیر لسان الدین ابن الخطیب.

هما هارون الرشيد، وحكيم فارسي الأصل، عربي اللسان، ولعله اختار الحكيم الفارسي، لما كان للفرس من معرفة قديمة في السياسة والحكم. على كل حال، لم يكن ما أجراه على لسان ذلك الحكيم إلا صدئ نفسه، فقد عبر عن تجربته وخبرته في ميدان السياسة والحياة والعلاقات العامة بين الملوك، والحكام والمحكومين. قال في مقدمة المقامات<sup>(١)</sup>: «سهر الرشيد ليلاً، وقد مال في هجر النبيذ ميله، وجهد ندماؤه في جلب راحته، وإلمام النوم بساحتها، فشخت عهادهم، ولم يعن اجتهادهم فقال: اذهبوا إلى طرق سماها ورسمها، وأمهات قسمها، فمن عثرتم عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلغوه، والأمنة سوّغوه، واستدعوه، ولا تدعوه، فطاروا عجالى، وتفرقوا ركباناً ورجالاً، فلم يكن إلا ارتداد طرف، أو فوق حرف، وأتوا بالغنية التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتسطعهم الأشعث الأغر، واللنج الذي لا يعبر: شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة»... .

ويشهد في وصفه حتى مثل أمام الرشيد فسألة: «من الرجل؟» فقال: فارسي الأصل، أعجمي الجنس، عربي الفضل»، ثم سأله الرشيد عن حاله وولده وعن فنه فأجاب: «الحكمة فني الذي جعلته أثيراً، وأضجعت فيه فراشاً وثيراً».

«فقال الملك: أجملت ففضل، وبريت فنصل، وكنت فأوصل وانثر الحب لمن يحصل، واقسم السياسة فتناً، واجعل لكل لقب

(١) نفح الطيب: ٤٣١/٦.

فانوناً، وابداً بالرعيَّةِ، وشروطها المرعيةُ».

فقال: «رعيتك وداعِ الله تعالى قبلك، ومراة العدل الذي عليه جَبَلَكَ، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانةِ الله تعالى التي وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونه فيه، وكفايته التي نكفيهم، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم».

وبتابع مفصلاً شارحاً فيَّ بين دور الوزير الصالح وصفاته ومنها «بعيد الهمة، راعياً للأذمة، رحيب الصدر رفيع القدر، معروف البيت، دريَا بحمل السلاح...» وغير ذلك من الصفات والخلال الهامة التي استفاض في سردتها. ثم انتقل إلى العمال، وذكره بالعدل فيما بينهم، ثم يتحدث عن الأولاد فيرشده إلى تربيتهم على خلال الخير كحب العلم، والصبر على المكاره، والبعد عن اللاهين والكافرين. أما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي «تفرق بها وتجمع»، فضولهم مطلوب، والحدُّر منهم خصوصاً من قويت شهواته. ولم ينس النساء لأنهن «مغارس الولد، وراحة القلب» فيقول: «واحدُر أن يجعل لفَّكر بشر دون بصر إيهن سيلأ، وانصب دون ذلك عذاباً وبيلاً... وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال... وأفضل من ولدت منهن إلى مسكن تخبر به استقلالها...».

ثم يتحدث عن المال وأهميته «فالمال المصنون أمنع الحصون، ومن قل ماله قصرت آماله». وينهي المقاماة بمجموعة من النصائح للملك، كأن يقرب العلماء لأنهم بمنزلة المشاعل المعلقة، وأن يكثر من العمارة ففيها بقاء الذكر، وذكره بأن يثق بالله ويتوكل عليه، ويتحدث عن المعلمين وأرشد إلى تحذيرهم من مغبة حمل الأحداث

على الشكوك، وبين أخيراً بأن الحجاب وإن كثروا فلا يغدون، لأن الملك مهما احتجب فهو «متزلة الظاهر للعيون المطالب بالديون».

ويخلص ابن الخطيب لإنتهاء مقامته حيث استعدى الحكيم عوداً «فأصلحة حتى حمده، وأبعد في اختباره أمده، ثم حرك بمه، وأطال الجن ثم، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات ويتصدع الحصاة...» ثم أجال اللحن إلى لون التنويم، فأخذ كل في النعاس والتهريم... فخاط عيون القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم المرافق، كأنما أدار عليهم الفرائد، ثم انصرف، فما علم به أحد...».

وخلاصة القول: أن ابن الخطيب قد خرج بالمقامة من نطاقها الضيق الذي وضعها فيه أسلافه، فلم يتخذها وسيلة لإظهار البراعة اللغوية والبلاغية كبديع الزمان، والسرقسطي وغيرهما من المشارقة والأندلسين، كما أنه لم يجعلها، مادة للتتر فيه والتسلية وملء الفرغ، بل نحا بها باتجاه مختلف تماماً عما كانت عليه، فهي إطار فني ذو موضوع يعالج مسائل إنسانية تتصل بالإنسان الفرد وبالمجتمع، والدولة، وعالج فيها مسائل سلوكية وتربيوية ولا يصدر ذلك إلا عن أديب بارع متفنن له من التجارب السياسية والإنسانية ما يرفعه من متزلة الكاتب العادي إلى درجة المفكر المصلح والمرشد الوعاظ، والمعلم الحكيم..

ولكته، ومن حيث الشكل والأسلوب، حافظ على السجع كوسيلة فنية يشبع فيها رغبته، ولكن تلاحظ السهولة في الألفاظ، وقصر الجمل على طريقة الفتح بن خاقان.

ولعل اللافت الأبرز، أنه استطاع أن يكتب في السياسة والإدارة

والتنظيم والأخلاق في أن معاً، فالمقامة ليست مقامة عادلة، بل هي دستور سياسي وأخلاقي وقانوني، جدير بالنظر والدرس والتمعن، كل ذلك في إطار أدبي فني رفيع بما يحويه من بساطة في الكلام، وخففة ورشاقة في العبارات نظراً لقصرها فضلاً عن السجع غير الثقيل والبعيد عن التكلف غالباً.

## ج — مواضعه وتصوفه:

وتحتل حيزاً كبيراً، خصوصاً في كتابه: «روضة التعريف بالحب الشريف» وقد اعتبر في كتابه هذا أن «حب الدنيا هو المانع عن الشروع في إطلاق العمل»<sup>(١)</sup> ، والوعظ عنده يكون بلسانين: لسان حال، ولسان مقال، ويرجع أن يكون لسان الحال أبلغ، لأنه يُسمَع من القبور الموحشة، والقصور الخالية، والمعظام البالية، وفيه حكايات وأخبار، أما لسان المقال فهو قوله تعالى: «وَسَكَتْمٌ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلَنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ»<sup>(٢)</sup> . وهو، على حد تعبير ابن الخطيب، «سبيل الله التي بعث بها النبيين، وضمن فصولها الكتاب المبين، والسوط الذي يحمل على الأوبية، ويسوق ذود المتطهرين إلى غدير التوبة»<sup>(٣)</sup> .

يقول في إحدى مواضعه بعد حمد الله تعالى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ

(١) نفع الطيب: ٦/٣١٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

(٣) نفع الطيب: ٦/٣١٦.

وأولادكم فتنهٌ والله عنده أجر عظيم<sup>(١)</sup>، ما بعد المقيل إلا الرحيل، ولا بعد الرحيل إلا المترنل الكريم أو المترنل الوبيل، وإنكم تستقبلون أهواً، سكرات الموت بواكير حسابها وعتب أبوابها، فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الآلاب...<sup>(٢)</sup>.

ومن أقواله في الوعظ:

«أين المعمر الخالد؟ أين الولد أين الوالد؟ أين الطارف أين التالد؟ أين المجادل أين المجالد؟ هل تحشّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم رِكزاً<sup>(٣)</sup>، وجوهٌ علاهن الشري، وصحائف تُفضى، وأعمال على الله تُعرض، بحث الزهاد والعباد، والعارفون والأوتاد، والأنبياء الذين يُهدى بهم العباد، عن سبب الشقاء الذي لا سعادة بعده، فلم يجدوا إلا بعد عن الله تعالى، وسيبه حب الدنيا»<sup>(٤)</sup>.

يتضح مما تقدم، أنه يربط الشقاء، بحب الدنيا، فلا سعادة مع التمسك بالأعراض الزائلة، والأمل هو الذي يفتح على النفس باب الحتف.

ومن أهم وصاياه تلك التي توجه بها نحو أبنائه، لما اشتتملت عليه من المعانى الجليلة السامية، والمشاعر الصادقة، وما أظهره من حرص على الباقي قبل الفانية، لأولاده من بعده فليست سعادتهم إلا

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

(٢) نفع الطيب: ٦/٣١٨.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٨.

(٤) نفع الطيب: ٦/٣٢٠.

في الآخرة، إذا أعدوا لها عذتها. يقول بعد حمد الله وصلاته على  
نبيه<sup>(١)</sup>:

«وبعد، فإنني لما علاني المشيب بقمعته، وقدني الكبر في رمته،  
وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام  
على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلق  
بعيني سعيه، وأملت أن تتعذر إلى ثمرة استقامته، وأنا رهين فوات،  
وفي يرزاخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي افتضت عثاري، إن  
سلك — وعسى أن لا يكون ذلك — على آثاري، فقلت أخاطب  
الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراوة إلى الله تعالى في  
توفيقهم، وإياضاح طريقهم، وجمع تفرقهم، وأن يمن على منهم  
بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك  
بهدي السلف، فهو ولبي ذلك، والهادي إلى خير المسالك».

وبتابع قائلاً:

«وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناسطكم قد  
كسل، واستبدل الصاب<sup>(٢)</sup> من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل،  
لا بل السام من كل حدب قد نسل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس  
كتسم فراغ حجر، واليوم ابناء عسکر مجر، وغداً شيوخ مضيعة  
وهجر، والقبور فاغرة، والنقوس عن المأثورات صاغرة، والدتها  
بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يتعظ به في  
أمر، وقال: بيدي لا بيد عمرو، فاقتنتها من وصية ومرام في النصح

(١) نفع الطيب: (٣٩١/٧). وأزهار الرياض: (١/٣٢٠) وما بعدها — (٤٠٦).

(٢) الصاب: جمع الصابة وهي ضرب من الشجر مر.

قصبة، وخصّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا».

ثم يوصيهم بأن لا يفرطوا في دينهم ويذكرهم بالأية: «**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**»<sup>(١)</sup>، «**وَالَّذِينَ الَّذِي أَرْتَضَاهُ وَاصْطَفَاهُ، وَأَكْمَلَهُ وَوَفَاهُ، وَقَرَرَهُ مَصْطَفَاهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَوَفَّاهُ، إِذَا أَعْمَلَ فِيهَا اتِّقادَ، فَهُوَ عَمَلٌ وَاعْتِقادٌ، وَكُلَّاهُما مُقْرَرٌ، وَمُسْتَمدٌ مِنْ عَقْلٍ أَوْ نَقلٍ مُحرَرٍ، وَالْعَقْلُ مُتَقْدِمٌ وَبِنَاؤُهُ مُعَرَّضٌ أَخْيَهُ مُتَهَمٌ، فَإِنَّهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَرِدٌ صَمَدٌ، لَيْسَ لَهُ وَالَّدٌ وَلَا وَلَدٌ. بِتَنَزِّهٍ عَنِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَسُبْقُ وَجُودِهِ وَجُودُ الْأَكْوَانِ، خَالِقُ الْخَلْقِ وَمَا يَعْمَلُونَ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَنِ شَيْءٍ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، الْحَيُ الْعَلِيمُ الْمَدِيرُ الْقَدِيرُ **لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**»<sup>(٢)</sup>، أَرْسَلَ الرَّسُولُ لِتَدْعُو النَّاسَ إِلَى النَّجَاهَةِ مِنَ الشَّقَاءِ».**

ثُمَّ يَدْعُوهُمْ إِلَى مَحْبَةِ الْعِلْمِ وَقَبْوَهُ وَمَحْبَةِ الْعُلَمَاءِ وَإِجْلَالِهِمْ، وَيَحْذِرُهُمُ الْمَعَاطِبُ الَّتِي تَوْجِبُ الشَّقَاءَ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِمُ التَّمَسُّكُ بِعِقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَيَذَكِّرُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ إِسْلَامَ دِينَهُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**»<sup>(٣)</sup>، وَيَشَدِّدُ عَلَيْهِمْ بِأَدَاءِ الصَّلَاةِ وَيَبْيَنُ فَضْلَهَا وَيَأْمُرُ بِالطَّهَارَةِ وَيَوْضِعُ أَهْمِيَّتَهَا، وَكَذَلِكَ الْزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجَّ، وَيَرْبِطُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالْعِلْمِ وَيَقْرِرُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْجَاهِلِ وَيَسْتَهِدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «**فَلْ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو**

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

الألباب<sup>(١)</sup>، وخير العلوم علوم الشريعة من فقه وحديث، ولا بد للMuslim من أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون صادقاً، فيتجنب الكذب، ويذكرهم بأن يحافظوا على الأمانة والعفة والصيانة، والمناصحة، ويعرض للنواهي المحرمات كالخمرة والربا والزنا، ويأمر بتجنب الحسد والغيبة ويحثهم على صنع المعروف والصدقات، والصبر على الأذى، ويحذر من شهادة الزور من الاشتراك في أمور الفتنة والبطالة، كما يدعوهم بأن يتقربوا إلى الله بالدعاء، ويوصيهم بأن يبرروا أهل مودته، ويختتم محذراً من الدنيا داعياً إلى الاعتدال والصيانة استعداداً إلى الرحيل بغية النجاة في الآخرة.

وهذه الوصية، فريدة حقاً، في معناها، فهي شاملة وافية بالغرض لمن أراد أن يتعظ ويتعلم فلم يترك فيها شاردة ولا واردة من الأمور الضرورية للدنيا والآخرة، فالدنيا لا تساوي شيئاً ولا تستحق الاهتمام، إلا بالمقدار الذي تتطلبه العبادة للعبور إلى الآخرة بقلب سليم مطمئن حيث النعيم الموعود.

كتابه الموسوم «روضة التعريف بالحب الشريف».

يقول لسان الدين في مقدمة الكتاب<sup>(٢)</sup>:

«وعن لي أذهب بهذا الحب المذهب المتادي إلى البقاء،  
الموصل إلى ذروة السعادة في معارج الارقاء، الذي غايته نعيم لا

(١) سورة الزمر: الآية: ٩.

(٢) نفح الطيب: ٦/٢٧٩. وما بعد.

ينقضي أمد़ه، ولا ينفد مددُه، ولا يفصل وصله، ولا يفارق الفرع  
أصلُه، حب الله المبلغ إلى قريه، المستدعي لرضاه وحبه، المؤثر  
بالنظر إلى وجهه، ويا لها من غاية، الملقي رحلَ المتصرف به بعد  
قطع بحار الفنا على ساحل الولاية.

«وَكُنْتُ وَقْتَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُؤْلَفَةِ فِي الْمُحْبَةِ عَلَى جَمْلَةِ مِنْهَا  
كِتَابٌ يَشَهِّدُهُ الْعَوَامُ وَيَسْتَخْفُهُ الْهَوَامُ، وَرِسَالَةُ ابْنِ وَاصِلَ رسَالَةُ  
مَهْذَارَةٍ، تَطْفُو مِنْ دَارَةٍ إِلَى دَارَةٍ فِي مَطَارِدَةٍ هُرُوقَارَةٍ، وَكِتَابُ ابْنِ  
الدَّبَاغِ الْقَبِرِوَانِيِّ، كِتَابٌ مَفْرُوعٌ، وَوَجْهُ الْمَقْصُودِ مِنْهُ مَتْبَرِقٌ، وَكِتَابُ  
ابْنِ خَلْصُونَ وَهُوَ أَعْدَلُهَا لَوْلَا بَدَاوَةُ تَسْمِيَةِ الْخَرْطُومِ وَتَنَاسُبُ الْجَمْلِ  
الْمَخْطُومِ، فَكُنْتُ بِمَا ذَكَرَ لَا أَفْنَعُ وَأَقُولُ مَا أَصْنَعُ، فَاللَّهُ يَعْطِي  
وَيَمْنَعُ».

ويقول في منهج الكتاب:

«وَجَعَلَتْهُ شَجَرَةً وَأَرْضًا، فَالشَّجَرَةُ الْمُحْبَةُ مُنَاسِبَةٌ وَتَشْبِيهٌ،  
وَإِثَارَةٌ لِمَا وَرَدَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَزَلَّةِ وَتَنْبِيهٌ، وَالْأَرْضُ النُّفُوسُ الَّتِي  
تَغْرِسُ فِيهَا، وَالْأَغْصَانُ أَقْسَامُهَا الَّتِي تَسْتَوْفِيهَا، وَالْأَوْرَاقُ حَكَائِثُهَا  
الَّتِي تَحْكِيَهَا، وَأَزْهَارُهَا أَشْعَارُهَا الَّتِي تَحْبِيَهَا، وَالْوُصُولُ إِلَى اللَّهِ  
تَعَالَى ثُمَرَتُهَا الَّتِي نَدْخُرُهَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَنَقْتَنِيهَا».

«وَلَيْسَ لَهَا كَالشَّجَرِ جِنْسٌ وَلَا فَصْلٌ، وَتَرْبِيَتْهَا رُوحٌ وَنَفْسٌ  
عَقْلٌ».

ويقول:

«وَنَقْلَتْ شَوَاهِدَ مِنَ الْحَدِيثِ وَالْخَبَرِ تَجْرِي صَاحِبَهَا مَجْرِي  
الزَّكَاةِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَالْخَواطِرِ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَيَجْرِي مَا سَوَاهَا مِنْ  
غَيْرِ الصَّحِيحِ مَجْرِيَ الْأَمْثَالِ، لِيَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ لِعُمُومِ خَيْرِهِ»

مسرحاً للفاره وغيره، ويجد كلَّ ميداناً لسيره، وملتفطاً لطيره،  
وممحكاً لغيره...».

ثم يعرف الحب بقوله:

«والحب حياة النفوس الموات، وعلة امتزاج المركبات وسبب  
ازدواج الحيوان والنبات، وسر قوله عز وجل: «أو من كان ميتاً  
فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في  
الظلمات»<sup>(١)</sup>، ليس كالحب الذي دون فيه المدونون».

«... والحازم من نظر في العواقب، نظر المراقب، وعرف  
الإضاعة، ولم يجعل الحلم بضاعة، إن الحب الحقيقي حب  
يصلعك ويرقيك، ويخلدك ويبقيك، ويطعمك ويسقيك ويخلصك  
إلى فتنة السعادة مما يشقيك، ويجعل لك الكون روضاً، وشرب  
الحق حوضاً، ويجنيك زهر المنى، ويف涅ك عن أهل الفقر والغنى،  
ويخضع التيجان لنعلك...».

يتضح، من خلال ما تقدم، أن لسان الدين، يدعو إلى  
التصوف، كما فهمه، على أنه الطريق الموصى إلى السعادة، وطريق  
السعادة المحبة، والمحبة الحقيقية توصل إلى المعرفة اليقينية.  
فأوائل الأحباب الأنبياء صلوات الله عليهم، وهم رؤساء أهل  
المحبة، والمحبة بنظره بحر بعيد الشط، وخطٌّ وفناء متلهى الخطط،  
والمحبة مهوى بعيد، ومجال وعد ووعيد، مرجل يغلي، ثم خيال  
يولى، وليس له حد عليه يعول. والوالد يشفق على أولاده ويعطف

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

عليهم، لما يعلم من مغريات الدنيا ولذاتها، فهو يخاف أن تأخذهم، فيقعون في فخاخها ويتغافلون عن دار السعادة بالأعراض البخسة في دنياهم، وبهذا الإحساس توجه إليهم، بصدق وبإخلاص ويصحبة راجياً منهم أن يقبلوا مواعظه ويعملوا بما وجههم إليه. وقد اتبع لإقناعهم وسائل عقلية بالكشف عن زيف الدنيا ويهرجها وخداعها، وبين ما في الآخرة من نعيم، بعد أن أمر باتباع ملة التوحيد قبل أي شيء، وقد اقتبس الكثير من الآيات الكريمة في سبيل تأييد ما يذهب إليه.

ومن ناحية أسلوبه. فإنه اعتمد التسلسل المنطقي في سرد أفكاره، فقدم ثم تناول موضوع الإيمان، وانتقل بعد ذلك إلى الفرائض الكبرى، ثم تدرك إلى التفاصيل وبعدها إلى السلوك فالخاتمة.

وقد حافظ على السجع كإطار فني لا غنى عنه، إلا أنه لم يجعله مركباً، بل هو من الصور المألوفة، وفواصله قصيرة، لذلك اتسمت الموعظة بجلاء أفكارها ووضوح عباراتها، وسهولة ألفاظها وبعدها عن التكلف.

وكلمةأخيرة إن كتابه هذا وما جاء فيه من فكر تصوفي، قد اتخذه أعداؤه ذريعة لتنفيذ مؤامرتهم ضده، إذ كانوا يكيدون له مدة طويلة قبل رحيله إلى الأندلس. ففتثروا عن عيوبه فلم يجدوا إلا أن يطعنوا في ما ورد في الكتاب كما مرّ، عند حديثنا عن حياته. والحب عنده حج ثانٍ لا يشئ نفس المريد عنه ثانٍ، طريقة التجريد، وزاده الذكر، وطوابه المعرفة، وإفاضته الفناء. ومن كلامه في الهوى بأنه طريق سهل لذلك يكثر التائهون جهلاً.

وهو إذ يتكلم عن المحبة والهوى، يشير إلى العقل والعاقلين وفي ذلك إشارات فلسفية يسير فيها على طريقة الفلاسفة فيقول: «فَلَدْتُمُ الْعِقْلَ وَلَهُ طُورٌ، وَرَأَيْتُمُ الْحَرْكَاتِ لَا يَتَنَاهِي لَهَا دُورٌ، وَعَالَمُ الْجُزُئَاتِ لَا يُسِيرُ لَهُ غُورٌ».

ويقول: «﴿أَرْجِعُوا وِرَاءَكُمْ فَالْتَّمَسُوا نُورًا﴾<sup>(۱)</sup> اساطين الحكمـة المشرقة، وفراشـ الأنوار الحقيقة، دعونـا من استكثارـ الأنوار، واحتـشادـ الأطوار». وإنـك تراـهـ يتـهمـ البعضـ بالـتفـصـيرـ عـنـ إـدـراكـ معـانـيـ الآـيـاتـ، بلـ هـمـ عـاجـزـونـ عـنـ تـفـسـيرـ الآـيـاتـ المـتـشـهـابـةـ يـقـولـ: «أـوـأـسـعـتـمـ الـمـتـشـابـهـ تـأـوـيـلـاـ، وـلـمـ تـعـتمـدـواـ مـنـ الـعـقـلـ دـلـيـلـاـ، وـلـاـ وـقـفـتـمـ فـيـ مـجـازـاتـ الـعـقـولـ قـلـيـلـاـ، وـهـوـلـمـ باـصـطـلاحـ غـيرـكـمـ تـهـوـيـلـاـ، وـادـعـيـتـمـ الشـهـودـ وـلـمـ يـجـعـلـ اللـهـ تـعـالـىـ فـيـ الـاحـتجـاجـ بـهـ إـلـاـ لـلـأـنـيـاءـ سـبـيلـاـ، وـبـنـيـتـمـ الـحـقـائقـ عـلـىـ قـيـاسـ وـنـظـرـ، مـنـ غـيرـ عـيـنـ لـلـعـقـلـ وـالـنـقـلـ وـلـاـ أـثـرـ».

ثم يقول:

«ومن جعلـ الحـسـ وـهـمـاـ، فـقـدـ كـاـبـرـ الـعـيـانـ ظـلـمـاـ، وـالـعـقـلـ الـذـيـ غـلـطـكـمـ هـوـ آـلـةـ حـكـمـكـمـ، وـأـدـاةـ عـلـمـكـمـ، وـالـعـوـالـمـ أـوـنـقـ منـ أـنـ تـكـوـنـ تـمـوـيـهـ رـاقـشـ، . . . فـالـفـيـلـسـوفـ، يـتـحدـ بـالـعـلـةـ الـقـرـيبـةـ مـنـ الـخـلـقـ، ثـمـ يـتـلـاشـيـ فـيـ ذـاتـ الـحـقـ، وـالـحـكـيمـ يـجـوزـ إـلـىـ عـيـنـ الـحـقـ رـتـبةـ الـفـتـاءـ الـمـطـلـقـ، وـالـمـتـشـرـعـ قـدـ عـضـدـهـ وـنـصـرـهـ».

والـعـقـلـ عـنـدـهـ قـاـصـرـ عـنـ إـدـراكـ كـلـ شـيـءـ، فـلـهـ طـاقـةـ لـاـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ

(۱) سورة الحـدـيدـ، الآـيـةـ: ۱۳ـ.

يتتجاوزها. يقول: «ولا تكلفوا العقول فوق طاقتها، فلا بد من توقيف وتسليم، وفوق كل ذي علم علیم».

### نظريّة المعرفة<sup>(١)</sup> :

ويعرّف المعرفة بقوله «المعرفة اختراق المراتب الحسية، والنفوس الجنسية، والعقول القدسية والبروز إلى فضاء الأزل، إذا فني من لم يكن وبقي من لم يزد، مع عمران المراتب ورقة الجائز في الواجب».

فبالمعرفة يذهب الكيف والأين، ويستقل الإنسان من الشدة إلى الفرج، ويصعد وينزل ويقف ويصل، فلا يقطعه الوصول عن البداية، ولا البداية تمنعه عن النهاية.

أما العارف، فيشكّر المصليين الركع والسجود، ويعذر الواحد المتواجد، ويرجم المنكر الجاحد، والعارف شجاع، لأنّه «معزّل عن هيبة الموت»، وجoad كريم، لأنّه «معزّل عن صحبة الباطل»، وصفّاح، لأنّه بعيد عن الزلات، كما يرى لسان الدين، وهو بعيد عن الأحقاد سرعان ما ينسى الإساءة لأنّه مشغول بالحق، ويخلص إلى تقرير مفاده بأنّ من عرف الله تعالى فقد صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين.

والوصول إلى درجة الولاية، بنظره، ليس أمراً صعباً، ولا هو

---

(١) نفع الطيب: ٦/٢٦٨.

بالسهل، لكن بالمجاهدات والرياضة وبالسلوك التدريجي بتغذية النفس يستطيع المجاهد أن يبلغ المرام.



## الخاتمة

قدمت في هذا الكتاب عرضاً سرياً للبيئة والعصر الأندلسيين من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية، ثم أردفت بدراسة سيرة لسان الدين ابن الخطيب فعرضت لجوانب حياته المختلفة بما يكشف عن شخصيته الفكرية والأدبية. ثم تناولت ثقافته ومؤلفاته وشيوخه، بالإضافة إلى نماذج محللة من نثره وشعره. وذيلت الكتاب بطاقة من رسائله ومواعظه وأشعاره لعل القارئ، يجد في ذلك، ما يجعله أمامه الصورة واضحة عن لسان الدين، ومعالم شخصيته وفكرة.

تمَّت الرسالة

والحمد لله رب العالمين

## مختارات شعرية

وفي وصف مكناة الزيتون يقول:

بالحسن من مكناة الزيتون  
قد صبح عذراً الناظر المفتون  
فضل الهواء وصحة الماء الذي  
يجري بها وسلامة المخزون  
سخت عليه أكل عين نرة  
للحزن هامبة الغمام هتون  
فاحمر خداً الوردي بين أباطح  
وافتر ثغر الزهر يين غصون  
ولقد كفاه شاهداً مهما ادعث  
قصب السباق القرب من زرهون  
جيلاً تضاحكت البروق بجروه  
فيكت عذاب عيونه بعيون  
وكأنما هو ببريري فاقد  
في لوجهه والتين والزيتون  
حيث من بلدى خصيبي أرضه  
مشوى أمان أو مناخ أمنون  
وضفت عليك من الإله عنایة  
تكسوك ثوابني أمنية وسكون

وفي مدح تلمسان يقول:

حياناً تلمسان الحيا فربوعها  
صلف يجود بدرة المكنون

ما شئت من فضلِ عميِّم إن سقى  
 أروى ومنْ لِيْس بالمنْون  
 أو شئت من دين إذا قدح الهدى  
 أورى ودنيا لم تكن بالدون  
 ورد النسيمُ لها بنشرٍ حديقةٍ  
 قد ازهَرَتْ أفنانها بفنون  
 وإذا حبيبة أم يحيى أنججتْ  
 فلها الشفوفُ على عيون العِيْن<sup>(۱)</sup>

وفي التضمين يقول:  
 يا كوكبَ الحسن يا معناه يا قمرَة  
 يا روضَه المتناهي الريع يا ثمرة  
 أمرتني بسلو عنكَ ممتنع  
 مأمور حسنك لماً يقضِي ما أمرَه

وفي التورية يقول:  
 ببابِي بسدرْ غرزاني  
 مستبيحاً شرح صدرِي  
 فإني اليوم شهيدُ الـ  
 حبِّ منْ غزوة بسدرِ

(۱) حبيبة أم يحيى: عين ماء يتلمسان عنده.

وقال واعظاً:

إِنَّا إِلَى اللَّهِ وَإِنَّا لَهُ  
مَا أَشْفَلَ الْإِنْسَانَ عَنْ شَأْنِهِ  
يَرْتَاحُ لِلأَثْوَابِ يُزْهِى بِهَا  
وَالخِيطُ مَغْزُولٌ لِأَكْفَانِهِ  
وَيَخْزُنُ الْفَلْسَ لِسُورَاتِهِ  
مُسْتَفْدِداً مَبْلَغَ أَكْوَانِهِ  
قَوْضٌ عَنِ الْفَانِي رِحَالُ امْرَئٍ  
مَدًّا إِلَيْهِ عَيْنَ عَرْفَانِهِ  
مَا كَمَّ إِلَّا مَوْقَفٌ زَاهِدٌ  
فَدَ وِكْلُ الْعَدْلِ بِمِيزَانِهِ  
مَفْرُطٌ بِشَفْقَى بِتَفْرِيطِهِ  
وَمُحْسِنٌ يُجْزِي بِإِحْسَانِهِ

وفي التصوف، معبراً عن الحب الحقيقي يقول:

أَعْشَاقُ غَيْرِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الْبَاقِي  
جَنُونُكُمْ وَاللَّهُ أَعْيَا عَلَى الرَّاقِي  
جَنِّتُمْ بِمَا يَفْنِي وَتَبْقِي مَضَاضَةً  
تَعَذَّبُ بَيْنَ الْبَيْنِ مَهْجَةً مُشْتَاقَّاً  
وَتَرْبِطُ بِالْأَجْسَامِ نَفْسًا حِيَاثَهَا  
مَبَايِنَةُ الْأَجْسَامِ بِالْجُوهرِ الرَّاقِي  
فَلَا هِيَ فَازَتْ بِالَّذِي عَلِقَتْ بِهِ  
وَلَا رَأْسَ مَالٍ كَانَ يَنْفَعُهَا بَاقِي

فراقٌ وقسّرُ وانقطاعٌ وظلمةٌ  
قُنِيَ الْبُعْدُ مِنْ نِيلِ السَّعادَةِ يَا وَاقِي  
كَأَنِي بِهَا مِنْ بَعْدِ مَا كَشَفَ الْغَطَا  
صَرِيعَةٌ أَحْزَانٌ لِدِيْغَةٌ أَشْوَاقٌ  
تَقْلِبُ كَفِيهَا بِخِيطٍ مَوْضَلٍ  
رَشِيقَةٌ قَدْ دُونَ سَبْعَةَ أَطْبَاقٍ  
فَلَا تَطْعَمُوهَا السَّمُ فِي الشَّهْدَ ضَلَّةٌ  
فَذَلِكَ سَمٌ لَا يَدْوَى بِدَرِيَاقٍ  
وَدَسَوا لَهَا الْمَعْنَى رُوِيدًا وَأَيْقَظُوا  
بَصِيرَتَهَا مِنْ بَعْدِ نَوْمٍ وَإِغْرَاقٍ  
فَإِنْ سَكَرْتُ وَاسْتَشْرِفْتُ عَنْدَ سَكَرِهَا  
لِمَاهِيَّةِ الْمَسْقَى وَمَعْرِفَةِ السَّاقِي  
أَطْبَلُوا عَلَى رَوْضِ الْجَمَالِ خَطُورَهَا  
إِلَى أَنْ يَقُومَ الْوَجْدُ فِيهَا عَلَى سَاقٍ  
وَخَلَوَا لِهِبِ الشَّوْقِ يَطْوِي بِهَا الْفَلَا  
إِلَى الْوَجْدِ فِي مَسْرِيِ رَمُوزٍ وَأَذْوَاقٍ  
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَحْطِرَ حَالَهَا  
بِمَثْوَى التَّجْلِيِّ وَالشَّهُودِ بِإِاطْلَاقٍ  
وَتَفْنِي إِذَا مَا شَاهَدْتَ مِنْ شَهُودِهَا  
وَقَدْ فَنِيَ الْفَانِيِّ وَقَدْ بَقِيَ الْبَافِيِّ  
هَنَالِكَ تَلَقَى الْعَيْشَ تَضَفُّو ظَلَالَهُ  
وَتَنْعَمُ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ بِرْ قَرَاقٍ

وَمَا قِسْمُ الْأَرْزَاقِ إِلَّا عَجَيْبَةُ  
فَلَا تُطْرَدُ السُّؤَالُ يَا خَيْرُ رَزَاقِ

قال مهثاً سلطان تلمسان أبا حمو سنة ٧٧٤ هـ:  
أنا شيعة لك حيث كنت، قضية  
لم يختلف في حكمها نفسان  
ولقد تراجعت الرماح فكنت في  
ميدان نهرك فارس الفرسان  
وروبيت غرب مآثرِ أنسدُها  
لعلك بين صحائجِ وحسان  
ولانت أولى بالتشيع شيمَةُ  
لم تتفق لسواك من إنسان

الشمس أنت قد انفردت وهل يُرى  
بين السورى في مطلع شمسان  
جبرت بجبرك كل نفس حرَّةٌ  
وشدا بشكْرِ اللهِ كُلُّ لسان  
وبدت سعوتك مستقيمةً سيرُها  
وعلت فقر أمامها النحسان  
فاستقبل السعد المعاود سافراً  
عن أي وجه للرضى حُسَانٌ  
وابغ المزيد بشكر رُبِّك ولتشقُّ  
بمضاعف الإنعام والإحسان

فالشكر يقتاد انمزيد ركائب  
 تشاب ببابك منه في أرسان  
 ثم السلام عليك يُزري عرفه  
 طيما يُعرف العود والبلسان

وقال، وقد رُفع للسلطان باكوره بنفسج:  
 قدم البنفسج وهو نعم الوارد  
 قد نَمَّ منه إلى طِبْ زائد  
 فسأله: ما باله؟ فأجابني  
 والحق لا يُغى عليه شاهد  
 أقبلتُ أطلبُ من بنان محمد  
 صلةً فعاد علىَ منه عائد

وقال عند انصراف ولده عبد الله إلى مدينة فاس :  
بان يوم الخميس قرّة عندي  
حسبى الله أي موقف بين  
لو جنى موقف النوى حين حبّا  
حان يوم الوداع والله حينى  
ضايقتنى صروف هذى الليالي  
وأطالت همى وألوت بدني  
وطئ نازح وشمال شتى  
كيف يبقى معذب بعد ذين  
يا إلهي أدرك بلطفك ضعفي  
إن ما أشتكيه ليس بهم

قال يشكر السلطان أبا حمتو صاحب تلمسان على ما كان أاعان  
به أهل الأندلس:

لقد زار الجزيرة منك بحر  
يملاً فليس تعرف منه جزراً  
أعدت لها بعهدك عهد موسى  
سميك فهي تتلو منه ذكراً  
أقمت جدارها وأفدت كنزاً  
ولو شئت اتخذت عليه أجراً

وقال في الوصف:

بلد تحف به الرياض كأنه  
وجه جميل والرياض عذارة  
وكأنما واديه معصم غادة  
ومن الجسور المحكمات سواره

وقال يصف بنيونش سبته:

بنيونشن أنسى الأماكن رقعة  
وأجل أرض الله طرأ شانا  
هي جنة الدنيا التي من حلها  
نال الرضى والرُّوح والريحان  
قالوا القروء بها فقلت فضيلة  
حيوانها قد قارب الإنسان

وقال في الغزل:

وما كان إلا أن جنى الطرف نظرة  
غدا القلب رهناً في عقوبة ذنبه  
وما العدل أن يأتي أمرؤ بجريرة  
فيؤخذ في أوزارها جارًّا جنبه

وفي معنى التوديع والفارق يقول:  
ناديت دمعي إذ جد الرحيل بهم  
والقلب من فرق التوديع قد وجبا  
سقطت يا دمع من عيني غداة نأى  
عني الحبيب ولم تفصن الذي وجبا

وفي الشيب يقول:  
تفر عن الشيب الغواني تعززاً  
كما يعترى بها إن رأت سام أبرصا  
بذا وضحاً في جدة العمر شانياً  
فمن سام شيخاً فهو قد سام أبرصا

وفي رثاء من اسمه حسن يقول:  
أشكوا إلى الله من بشي ومن شجنني  
لم أجيء من محنتي شيئاً سوى محنٍ  
أصابت الحسن العين التي رشقـت  
وعادة العين لا تصمي سوى الحسن

وكان يترجم أحياناً على طريقته المميزة:

قال في بعضهم: «كودن حلبة الآداب، وستور عبد الله بيع  
بقيراط لما شاب، هام بوادي الشعر مع من هام، واستمطر منها  
الجهاز، فجاء بأبيات أوهى من بيت العنكبوت نسجاً، ومقاصد لا  
تبين مقصدأ ولا نهجاً، وله بيت مععور بقضاه أكابر، فرسان أقلام  
ومحابير، وعمال قادوا الدهر بأزمة أمتهم... وتصرف آخر عمره في  
بعض الأعمال المخزنية فتعطل بتزر القوت، إلى الأجل الموقوت».

ومن إنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف مشيخة الغزاة  
على لسان السلطان والده:

«هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبنود، وقد العساكر  
والجنود، وأجال في ميدان الوجود، جياد البأس والجود، وأضفى  
ستر الحماية بالتهائم والنجود، على الطائفين والعاكفين، والركع  
السجود عقد للمعتمد به عقد التشريف، والقدر المنيف، زاكي  
الشهدود، وأوجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجم المهدود،  
وبشر السيوف في الغمود وأنشأ ريح النصر آمنة من الخمود، أمضى  
أحكامه، وأنهد العز أمامه، وفتح من زهر السرور والحبور كمامه،  
أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر - أيد الله تعالى أمره  
وخلد ذكره - ل الكبير ولده وسابق أمده، وريحانة خلده وياقونة الملك  
على يده، الأمير الكبير الظاهر الظاهر الأعلى... السعيد المظفر  
الهام الأعلى الأمضى... المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج  
يوسف...»

ومن إنشائه على لسان السلطان:

«هذا ظهير كريم، مضمونه استجلاء لأمور الرعية واستطلاع، ورعاية كرمت منها أجناس وأنواع، وعدل بهر منه شعاع، ووصايا لها اهطاع، أصدرنا للفقيه فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله رأينا أنه أحق من نقلده السهم الأكيد، ونرمي به من أغراض البر الغرض بعيد، ونستكشف به أحوال الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها... وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس في مساجدهم ويندبهم من مشاهدهم، ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم... ومن أهم ما أسنده إلينه وعلمنا فيه عليه البحث بتلك الأحوال، عن أهل البدع والآهواء».

«ويتفقد المساجد تفقداً يكسو عاريها، ويتمم منها المأرب تعميمها يرضي باريها، ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم».

«وعلى من يقف عليه من القواد والأشياخ والحكام أن يكونوا معه يداً واحدة على ما حررنا في هذه الفصول...»

ومن وصفه المرسل غير المسجّع قوله حين أجرى ذكرى مدينة «مكتامة الزيتون»: «وأطلت مدينة مكتامة في مظهر النجد، رافلة في حلل الدوح، مبتسمة عن شب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المراد، قد أحكمَ وضعها الذي أخرج المرعلى، قيد النص وفذلكة الحسن، فنزلنا بها متزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً من بلد دارت به المداشر<sup>(١)</sup> المُغلة، والتفت بسورة الزياتين المقيدة، ورار بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمى إليه الطرف، ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف ربوة، ومثلت بازائتها

---

(١) المداشر: القرى.

الزاوية القدّمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمئذنة السامية، والمرافق المتيسرة، يصايبها الخان البديع المنصب الحصين الغلق الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى».

قال الوزير لسان الدين: وطلب مني الكتب عليه بمثل ذلك، فكتبت بعض أوراقه إثارة لضجره، واستدعاء لفكاهاه ازعاجه، ما نصه:

«وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام محموم، واختلاط مذموم، وانتساب زنج في روم، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها، وينجنب عقيلة لم يملكها، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول، إنما هي فححة وخلاف، وتهاون بالمعارف واستخفاف، غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة، وفيه رجولية ظاهرة، وعنده طلاقة لسان، وكفاية فلما تأتى لإنسان، فإلى الله نضرع أن يعرفنا مقادير الأشياء، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء، وقد قلت مرتجلاً من أول نظرة، واجتزاء بقليل من كثرة:

كُلُّ جَارٍ لِغَایَةِ مَرْجِحَةٍ

فهو عندي لم يَعُدْ حَقَّ الفتوى  
وأراك افتحمت ليلاً بهيمَا

مولجاً منك ناقة في كوة  
لا اتبعها ولا اختراعاً أتننا

إذ نظرنا عروسك المجلوقة

كُلُّ مَا قلتُ فقد قاله النا  
سُّ مقلاً آياثُه متلوة

لم تزد غيرَ أن أبحَثَ حمَى الإِعْ  
 سرَابٌ فِي كُلِّ لفْظَيْ مُقْرَأَةٍ  
 نَسَأُلُ اللَّهَ فَكَرَّةً تُلَزِّمُ الْعَقْ  
 لَلَّى إِلَى حَشْمَةٍ تَحْوُطُ الْمُرَوَّةَ  
 وَعَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ كُنْتَ يَحْيِي  
 ثُمَّ لَمْ تَأْخُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ»

— ومن بديع نثر لسان الدين ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة  
 سينية حازت قصب السبق، ولتبين الكل هنا فنقول: قال الإمام  
 الحافظ عبد الله التنسـي نزيل تلمسان رحمـه الله تعالى، عندما جرى  
 ذكر أمير المسلمين السلطـان أبي حمـو موسـى بن يوسف بن  
 عبد الرحمن بن يـغـمـرانـ بن زـيانـ رـحـمـه اللهـ تـعـالـيـ. ما صورـتهـ:  
 وكان الفقيـه ذو الـوزـارـتينـ أبو عبد اللهـ بنـ الخطـيبـ كـثـيرـاـ ماـ يـوجـهـ إـلـيـهـ  
 بالـأـمـدـاحـ، وـمـنـ أـحـسـنـ ماـ وـجـهـ لـهـ قـصـيـدةـ سـيـنـيـةـ فـائـقةـ، وـذـكـرـ عـنـدـمـاـ  
 أـحـسـ بـتـغـيـرـ سـلـطـانـهـ عـلـيـهـ، فـجـعـلـهـ مـقـدـمـةـ بـيـنـ يـدـيـ نـجـواـهـ، لـتـمـهـدـ لـهـ  
 مـثـواـهـ، وـتـحـصـلـ لـهـ الـمـسـتـقـرـ، إـذـ أـلـجـأـهـ الـأـمـرـ إـلـىـ الـمـفـرـ، فـلـمـ تـسـاعـدـهـ  
 الـأـيـامـ، كـمـاـ هـوـ شـائـهاـ فـيـ أـكـثـرـ الـأـعـلـامـ، وـهـيـ هـذـهـ:

أَطْلَقُنَا فِي سُدَافِ الْفَرَوْعَ شَمْوَسَا  
 ضَحَّكَ الظَّلَامُ لَهَا وَكَانَ عَبُوسَا  
 وَعَطَفَنَا قُضْبَا لِلْقَدْوَدِ نَوَاعِمَا  
 بُؤْثَنَ أَدْوَاجَ النَّعِيمِ عَرَوَسَا  
 وَعَذَّلَنَ عَنْ جَهَرِ الْلَّامِ مَخَافَةَ الـ  
 وَاشـيـ فـجـئـنـ بـلـفـظـيـ مـهـمـوـسـاـ

وسَفَرْنَ مِنْ دَهْشِ الْوَدَاعِ وَقَوْمُ  
 هُنَّ إِلَى التَّرْخِلِ قَدْ أَنَاخُوا العِيْسَا  
 وَخَلَسَنَ مِنْ خَلْلِ الْحَجَالِ إِشَارَةً  
 فَتَرَكَنَ كُلَّ حَجَالَهَا مَخْلُوسَا  
 لَمْ أَنْسَهَا مِنْ وَحْشَةِ الْحَيِّ قَدْ  
 زَجَرَ الْحَمْوَلَ وَأَثَرَ التَّغْلِيسَا  
 لَا الْمُلْتَقِي مِنْ بَعْدِهَا كَثَبٌ وَلَا  
 غُوجُ الرَّكَائِبِ تَسَأْمُ التَّخِيسَا<sup>(۱)</sup>  
 فَوَقَثُ وِقَفَةً هَائِمٌ بِرَحَاؤُهُ  
 وَقَفَثُ عَلَيْهِ وَجْهَتُ تَحْيِسَا  
 وَدَعَوْتُ عَيْنِي عَاتِبًا وَعَيْنُهَا  
 بَعْصًا النَّوْيِّ قَدْ بَجَسْتَ تَبْجِيسَا  
 نَافَستِ يَا عَيْنِي دَرَّ دَمَوْعَهُمْ  
 فَعَرَضَتِ دَرَّا لِلْدَمْوعِ نَفِيسَا  
 مَا لِلْحَمْى بَعْدَ الْأَحْبَةِ مُوْحَشَا  
 وَلَكُمْ تَرَاءِي أَهْلًا مَأْنُوسَا  
 وَلِسَرِبِهِ حَوْلَ الْخَمِيلَةِ نَافِرَا  
 عَمَّنْ يَحْسَنْ بِهِ وَكَانَ أَنِيسَا  
 وَلَظْلِهِ الْمُوْرُودِ غَمْرُ قَلِيلِهِ  
 لَا يَقْتَضِي وَرَدًا وَلَا تَغْرِيسَا

(۱) التَّخِيسُ: تَذْلِيلُ الدَّابَّةِ.

حيَّثُ فَأَجَابَنِي رَجْمُ الصَّدِي  
 لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِذَا مَا قِسِّا  
 مَا إِن يَزِيدُ عَلَى الإِعَادَةِ صَوْتُهُ  
 حِرْفًا فَيُشَفِّي بِالْمَزِيدِ نَسِيَّا<sup>(١)</sup>  
 نَصَبَ الْمَعْيَنُ وَقَلَصَ الظَّلُّ الَّذِي  
 ظَلَّنَا عَكْوَفًا عَنْهُ وَجْلُوسًا  
 تَوَاعَدُ الرُّجْعَى وَنَغْتَنَمُ اللَّقا  
 وَنَدِيرُ مِنْ شَكْوِي الغَرَامِ كَؤُوسًا  
 فَإِذَا سَأَلْتَ فَلَا تَسْأَلْ مُخْبِرًا  
 وَإِذَا سَمِعْتَ فَلَا تَحْسُنْ حَسِيبًا  
 عَهْدِي بِهِ وَالدَّهْرُ يَتْحَفُّ بِالْمُنْتَهِي  
 وَقَدْ افْتَضَتْ نَعْمَاهُ أَنْ لَا بُوسَا  
 وَالْعِيشُ غَضَّ الرَّئِيعِ وَالْدُّنْيَا قَدْ اجَّ  
 تَلِيَّتْ بِمَغْنَاهُ عَلَيَّ عَرَوَسَا  
 أُثْرِي يَعِيدُ الدَّهْرُ عَهْدًا لِلصَّبَا  
 دَرَسَتْ مَعَانِي الْأَنْسِ فِيهِ دروسَا  
 أَوْطَانُ أَوْطَارٍ تَعْوَضُ أَفْقَهَا  
 مِنْ رَوْنَقِ الْبَشَرِ الْبَهِيِّ عَبُوسَا  
 هَيَّهَاتَ لَا تَغْنِي لَعْلَّ وَلَا عَسْيَ  
 فِي مُثْلِهَا إِلَّا لَآيَةٍ عِيسَى

---

(١) النسيس: غاية الجهد.

والدَّهْرُ فِي دَسْتِ الْقَضَاءِ مَدْرُسٌ  
 فَإِذَا قَضَى يَسْتَأْنِفُ التَّدْرِيسا  
 تَفْتَنُ فِي جُمَلِ الْوَرَى أَبْحَاثُهُ  
 لَا سِيمَا فِي بَابِ نَعَمْ وَبِسَا  
 وَسْجِئَةُ إِلَّا نَسَانٍ لَيْسَ بِنَاصِلٍ  
 مِنْ صَبْغِهَا حَتَّى يُرَى مَرْمُوسًا  
 يَغْتَرُ مَهْمَا سَاعَدَتْ أَمَالَهُ  
 فَإِذَا عَرَاهُ الْخَطْبُ كَانَ يَؤُوسًا  
 فَلَوْ أَنَّ نَفْسًا مُكْنَثَةً مِنْ رَشْدِهَا  
 يَوْمًا وَقَدْسَهَا الْهَدِيَّ تَقْدِيسًا  
 لَمْ تَسْتَفِرْ رَسُوخَهَا النَّعْمَى وَلَا  
 هَلَعَتْ إِذَا كَثُرَتْ إِلَيْهَا الْبُوْسِيَّ  
 قَلْ لِلزَّمَانِ إِلَيْكَ عَنْ مُتَذَمِّمٍ  
 بِضَمَانِ عَزْ لَمْ يَكُنْ لِيَخِسَا<sup>(١)</sup>  
 فَإِذَا اسْتَحَرَ جَلَادُهُ فَأَنَا الَّذِي اسْ  
 تَغْشِيَتْ مِنْ سَرِّ الْيَقِينِ لَبُوسًا  
 وَإِذَا طَغَى فَرْعَوْنُهُ فَأَنَا الَّذِي  
 مِنْ ضُرَرِهِ وَأَذَاهُ عُذْتُ بِمَوْسِيَّ  
 أَنَا ذَا أَبُو مَشْوَاهَ مَنْ يَحْمِي الْحَمَى  
 لِيَشَا وَيَعْلَمُ بِالْزَّئِيرِ الْخَبِيسَا

(١) خَاسٌ: غَدر.

بحمى أبي حمو خططت ركائبى  
 لـما اختبرت الليث والعرسـا  
 أـسد الـهـيـاج إذا خـطا قـدـمـا سـطـا  
 فـتـخـلـفـ الأـسـدـ الـهـزـبـرـ فـرـيسـا  
 بـدرـ الـهـدـىـ يـأـبـىـ الضـلـالـ ضـيـافـهـ  
 بـأـبـداـ فيـجـلـوـ الـظـلـمـةـ الحـنـديـساـ  
 جـبـلـ الـوـقـارـ رـسـاـ وـأـشـرـفـ وـاعـتـلـىـ  
 وـسـمـاـ فـطـاطـاتـ الـجـبـالـ رـؤـوسـاـ  
 غـيـثـ النـوـالـ إـذـاـ الغـمـامـ حـلـوبـهـ  
 مـثـلـتـ بـأـيـدـيـ الـحـالـيـسـ بـسـوسـاـ<sup>(١)</sup>  
 تـلـقـاهـ يـوـمـ الـأـنـسـ روـضـاـ نـاعـمـاـ  
 وـتـرـاهـ بـأـسـاـ فـيـ الـهـيـاجـ بـئـسـاـ  
 كـمـ غـمـرـةـ جـلـىـ وـكـمـ خـطـبـ كـفـىـ  
 إـنـ أـوـطـاـ الـجـرـدـ العـنـاقـ وـطـيـسـاـ  
 كـمـ حـكـمـةـ أـبـدـىـ وـكـمـ فـصـدـ هـدـىـ  
 لـلـسـالـكـيـنـ أـبـانـ مـنـهـ درـيـسـاـ<sup>(٢)</sup>  
 أـعـلـىـ بـنـيـ زـيـانـ وـالـفـدـ الـذـيـ  
 لـبـسـ الـكـمـالـ فـرـيـنـ الـمـلـبـوسـاـ  
 جـمـعـ النـدـىـ وـالـبـأـسـ وـالـشـيـمـ الـعـلـاـ  
 وـالـسـوـدـدـ الـمـتـوـاتـرـ الـقـدـمـوـسـاـ

(١) البوس: النافة التي تتطلب إساساً أي تسكيناً كي تدر.

(٢) الدريس: الطريق الخفي.

والحلُّمُ لِيَسْ يَبَانُ الْخَلْقُ الرَّضِيُّ  
 وَالْعِلْمُ لِيَسْ يَعَارِضُ النَّامُوسَا  
 وَالسَّعْدُ يَغْنِي حُكْمَهُ عَنْ نَّصْبِيَّةِ  
 تَسْتَخِبِرُ التَّرْبِيَّعُ وَالتَّسْدِيسَا  
 كَمْ رَاضٌ صَعْبًا لَا يَرَاضِ مُعَاصِيَا  
 كَمْ خَاضَ بَحْرًا لَا يَخْاضُ ضَرُوسَا  
 بَلْغَ التَّيِّ لَا فَوْقَهَا مَتَمَهْلَأً  
 وَعَلَا الشُّهَا وَاسْتَفَلَ الْبَرْجِيسَا<sup>(١)</sup>  
 يَا خَيْرَ مَنْ خَفَقْتُ عَلَيْهِ سَحَابَةُ  
 لِلنَّصْرِ تُمَطَّرَهُ أَجْشَ بَجِيسَا<sup>(٢)</sup>  
 وَأَجْلَ مَنْ حَمَلَهُ صَهْوَةُ سَابِحٍ  
 إِنْ كَرَّ ضَعْضَعَ كَرْهَةِ الْكُرْدُوسَا  
 قَسَمًا بَمَنْ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ مَا  
 عَمَدَ وَرَفَعَ فَوْقَهَا إِدْرِيسَا  
 وَدَحَا الْبِسْطَةَ فَوْقَ لُجْ مُزَبِّدَا  
 مَا إِنْ يَرْزَالُ عَلَى الْقَرَارِ حَبِيسَا  
 حَثَرَ الرَّئِيسَ إِلَيْهِ وَالْمَرْفُوسَا

(١) البرجيس: المشتري.

(٢) البعجيس: غزير في تدفقه.

ما أنتَ إلَّا ذخْرٌ دهِرٌ دمتَ فِي الـ  
 صُونِ الْحَرِيرِ مُمْتَعًا مَحْرُوسًا  
 لَوْ سَاوِمْتَهُ الْأَرْضُ فِيكَ بِمَا حَوَثَ  
 لَرَآكَ مُسْتَامًّا بِهَا مَبْخُوسًا  
 حَلْفُ الْبَرْوَرُ بِهَا أَلِيَّةً صَادِقٌ  
 وَيَمِينُ مَنْ عَقَدَ الْيَمِينَ غَمْوسًا  
 مَنْ قَاسَ ذَاتَكَ بِالذِّوَافِ فَإِنَّهُ  
 جَهَلَ الْوِزَانَ وَأَخْطَأَ التَّقْيِيسًا  
 لَا تَسْتُوِي الْأَعْيَانُ فَضْلًا مَرْزِيَّةً  
 وَطَبِيعَةً فَطَرَ إِلَيْهِ وَسُوسًا<sup>(1)</sup>  
 لِعْنَاءِ التَّخْصِيصِ سَرُّ غَامِضٌ  
 مِنْ قَبْلِ ذَرَءِ الْخَلْقِ خَصَّ نَفْوسًا  
 مِنْ أَنْكَرَ الْفَضْلِ الَّذِي أُوتِيَّهُ  
 جَحَدَ الْعَيَانَ وَأَنْكَرَ الْمَخْسُوسًا  
 مِنْ دَانَ بِالْإِخْلَاصِ فِيكَ فَعْقَدَهُ  
 لَا يَقْبَلُ التَّفَوِيَّةُ وَالتَّلْبِيسُ  
 وَالْمَتَمَى الْعَلَوِيِّ عِصْكَ لَمْ تَكُنْ  
 لَتَرِي دُخِيلًا فِي بَنِيهِ دَسِيسًا  
 بَيْثُ الْبَتْوِلِ وَمَبْتُ الشَّرْفِ الَّذِي  
 تَحْمِي الْمَلَائِكَ دُوَّهَةَ الْمَغْرُوسَا

---

(1) السوس: الطبيعة والسلبية.

أَمَا سِيَاستُكَ الَّتِي أَخْكَمْتَهَا  
وَرَمَيْتَ بِالْتَّقْصِيرِ أَسْطَالِيسَا  
فَلَوْ أَنَّ كَسْرَى الْفَرَسِ أَبْصَرَ بَعْضَهَا  
مَا كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يُعْذَى سُوسَا<sup>(١)</sup>  
لَوْ سَارَ عَدْلَكَ فِي السَّنِينِ لَمَا اشْتَكَثَ  
بَخْسَاً، وَلَمْ يَكُنْ بَعْضُهُنَّ كَبِيسَا  
وَلَوْ جَوَارِي الْخُنُسُ انتَسَبَتْ إِلَى أَقْدَامِ  
عَزْمَكَ مَا خَنْسَنَ خُنُوسَا<sup>(٢)</sup>  
فُذْتَ الصَّعَابَ فَكُلَّ صَعْبٍ سَامِحٌ  
لَكَ بِالْقِيَادِ وَكَانَ قَبْلُ شَمُوسَا  
تَلَقَى الْلِبُوثَ وَلِلْقَتَامِ غَمَامَةُ  
قَدَحَ الصَّفِيقَ وَمِيَضَهَا الْمَقْبُوسَا  
وَكَانَهَا تَحْتَ الدَّرَوْعَ أَرَاقِمُ  
يَنْظَرُنَّ مِنْ خَلْلِ الْمَغَافِرِ شُوسَا  
مَا لَابِنِ مَامَةَ فِي الْقَدِيمِ وَجَاهَتِمْ  
ضَرَبَ الزَّمَانَ بِجُودِهِمْ نَاقُوسَا  
مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ مُثْلَ جُودَكَ كُلُّمَا  
حَسِبُوا الْمَكَارَمَ كَشْوَةً أَوْ كَبِيسَا  
أَنْتَ الَّذِي افْتَكَ السَّفِينَ وَأَهْلَهُ  
إِذْ أَوْسَعْتَ سُبْلَ الْخَلاَصِ طَمُوسَا

---

(١) يُعْذَى سُوسَا: يتجاوز السوس، وهي موضع يشتهر.

(٢) الْخُنُسُ: الغياب.

## ١١) التسميع: تلiven الشمع

والتشخيص: تعریض الموارد للشمس.

(٢) الحل: التحليل الكيميائي؛ والتقطير والتصعيد التقية، والتصوير: التغسيل.

بُهْتُوا فلَمَا اسْتَخِبْرُوا لَمْ يَنْكِرُوا  
وَزْنًا وَلَا لَوْنًا وَلَا مَلْمُوسًا  
وَتُدِيرُ مِنْ قَلْبِ السُّطُورِ سَبَائِكًا  
مِنْهَا وَمِنْ طَبَعِ الْحَرْوَفِ فَلَوْسًا  
وَنَحْوَتِ نَحْوِ الْفَضْلِ تَعْضُدُ مِنْهُ بَالٍ  
مَسْمُوعٌ مَا أَفْيَتَ مِنْهُ مَقْبِسًا  
وَجَبْرَتْ بَعْدَ الْكَسْرِ فَوْمِكْ جَاهِدًا  
تُغْنِي الْعَدِيمَ وَتُطْلُقُ الْمَحْبُوسًا  
وَنَشَرْتْ رَايَةً عَزْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا  
دَالَ الزَّمَانُ فَسَامَهَا تَنْكِيسًا  
أَخْكَمْتَ حِيلَةً بُرْنَهُمْ بِلَطْافَةٍ  
قَدْ أَعْجَزْتُ فِي الطَّبِّ جَالِينُوسًا  
وَفَلَّتْ مِنْ حَدَّ الزَّمَانِ إِنَّهُ  
أَوْحَى وَأَمْضَى مِنْ غَرَارِ الْمُوسَى  
وَشَحَذْتَ حَدَّا كَانَ قَبْلُ مِثْلَمَا  
وَنَعْشَتَ جَدَّا كَانَ قَبْلُ تَعِيسَا  
لَمْ تَرْجُ إِلَّا اللَّهُ جَلَّ جَلَالَهُ  
فِي شَدَّةٍ تُكْفِي وَجْرِحِ يَوْسَى  
قَدَمْتَ صَبَحًا فَاسْتَضَأْتَ بِنُورِهِ  
وَوَجَدْتَ عِنْدَ الشَّدَّةِ التَّنْفِيسًا  
مَا أَنْتَ إِلَّا فَالْمُلْحُ مُتَيَّقِّنُ  
بِالْتَّجْرِحِ تَعْمَرُ مُفْرِعًا وَيَسِّا

وَمَتَاجِرُ جَعْلَ الْأَرِيكَةَ صَهْوَةَ  
عَرَبَيَّةَ وَالْمُتَكَبَا الْقَرَبُوسَا  
مَا إِنْ تُبَايِعُ أَوْ تَشَارِي وَاثِقَا  
بِالرِّبَحِ إِلَّا الْمَالِكُ الْقُدُوسَا  
وَالْعَزْمُ يَفْتَرِعُ النَّجَوْمَ بِنَسَوَةَ  
مَهْمَا أَقَامَ عَلَى الْثُقَى تَأْبِسَا  
وَمَقَامُ صَبْرَكَ وَاتِّكَالَكَ مُذَكَرُ  
بِحَدِيثِهِ الشَّبَلِيَّ أَوْ طَاوُوسَا  
وَمَنْ ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَفَقَ سَعِيَةَ  
فَرَأَى الْعَظِيمَ مِنَ الْحَظَوْظِ خَسِيسَا  
مَا ازَدَدَتْ بِالْتَّمْحِيقِ إِلَّا جَذَّةَ  
وَنَضُوتَ مِنْ خَلْعِ الزَّمَانِ لَيْسَا  
وَلَطَالِمَا طَرَقَ الْخَسْوَفُ أَهْلَهَ  
وَلَطَالِمَا اعْتَرَضَ الْكَسْوَفُ شَمُوسَا  
ثُمَّ انْجَلَّتْ قَسْمَاتُهَا عَنْ مَشْرِقِ  
لِلْسَّعْدِ لَيْسَ بِحَادِرٍ تَتَعَسِّسَا  
خَذَّها إِلَيْكَ عَلَى النَّوِي سِينِيَّةَ  
تَرْضَى الطَّبَاقَ وَتَشَكَّرُ التَّجْنِيسَا  
إِنْ طَوَوْلَتْ بِالْذَّرِّ مِنْ حَوْلِ الْطَّلَى  
يَوْمًا تَشَكَّتْ حَظَّهَا الْمُوكُوسَا  
لَوْلَاكَ مَا أَضْفَتْ لِخَطْبَةِ خَاطِبٍ  
وَلَعْنَسَتْ فِي بَيْتِهَا تَعْنِيسَا

قَصَدْتُ سَلِيمَانَ الزَّمَانَ وَقَارِبَتْ  
 فِي الْخَطْوِ تَحْسِبُ نَفْسَهَا بِأَقْبِسَا  
 لَيْ فِيكَ وُدْ لَمْ أَكُنْ مِنْ بَعْدَ مَا  
 أُعْطِيْتُ صَفْقَةً عَهْدَهُ لِأَخِيسَا  
 كَمْ لِي بِصَحَّةِ عَقْدِهِ مِنْ شَاهِدٍ  
 لَا يَخْلُذُ التَّجْرِيْعَ وَالثَّدِيلَيَا  
 يَقْفُوا الشَّهَادَةَ بِالْيَمِينِ، وَإِنَّهُ  
 لَمُؤْمَنٌ مِنْ أَنْ يُعَذَّ فَيَسَا<sup>(۱)</sup>

لَا يَسْتَقِرُ قَرَارُ أَفْكَارِي إِلَى  
 أَنْ أَسْتَقِرُ لَدِيْ عَلَّاكَ جَلِيسَا  
 وَأُرِي تِجَاهِكَ مُسْتَقِبِّمَ السِّبِّرَ لَدِيْ  
 فَصَدِ الَّذِي أَعْمَلْتُهُ مَغْكُوسَا  
 هِيْ دِيْنُ أَيَامِيْ فِيَانَ سَمَحَتْ بِهِ  
 لَمْ يَسْقِ مِنْ شَيْءٍ عَلَيْهِ يَوْسِي  
 لَا زَالَ صَنْعُ اللَّهِ مَجْنُوبَاً إِلَى  
 مَشْوَالَ يَهْدِي البَشَرَ وَالثَّائِسَا  
 مُشَابِعاً كَشَابِيعِ الْأَيَامِ لَا  
 يَذْرُ التَّعَاقِبَ جَمِيعَةً وَخَمِيسَا  
 فَلَوْ أَنْصَفْتَكَ إِيَالَةُ الْمُلْكِ الَّتِي  
 رُضِتَ الزَّمَانَ لَهَا وَكَانَ شَرِيسَا

---

(۱) الفيس: الضعيف.

قررت بذكرك والدعاء لك الذي  
تختارة التشبيح والتقديسا  
القلب أنت لها رئيس حياتها  
لمن تُعتبر مهما صلحت رئيسا

ثم قال الحافظ التنسي رحمة الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه: إن لسان الدين ابن الخطيب حَذَا في هذه القصيدة السينية حَذْوَ أبي تمام في قصيده التي أولها<sup>(١)</sup>:

## أَقْشِيشَبْ رَبْعَهُمْ أَرَاكَ دريسا

تَقْرِي ضِبْوَفَكَ لَوْعَةً وَرَسِّـا

واختلس كثيراً من ألفاظها ومعانيها؛ انتهى.

(۱) دیوانه ۲ : ۲۶۲

إحسانه، أو يستقلّ بوصفها يراعه، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه؟  
 ولا مكابرة بعد الاعتراف، والبحر لا ينخدُ بالاعتراف، لا سيما  
 وذاتكم اليوم والله تعالى يقيها، ومن المكاره يقيها، وفي معراج  
 القرب من حضرة القدس يرقىها، ياقوته اختارها واعتبرها، ثم  
 ابتلاها بالتمحیص في سبيل التخصیص واحتبرها، وسيکة أخلصها  
 مسجراها، فخلصها بتسجيده من الشّوب، وأبرزها من لباب الذوب،  
 وقصرت عن هذه الأثمان، وسُرّ بصدق دعواه البهرمان<sup>(١)</sup>، ليفاضل  
 بين الجهام والصَّيْب و «ليميز الله الخبيث من الطَّيِّب» (سورة  
 الأنفال، الآية: ٣٧) فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة،  
 وعرّفكم بنفسه في حال الشدة، ثم فسح لكم بعد ذلك في المدة،  
 لتعرفوه إذا دال الرخاء، وهبّت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُّخاء،  
 وملأكم من التجارب، وأوردكم من الطافه أعزب المشارب،  
 ونقلكم بين إمار الزمان وإحلائه، ولم ينسلُّكم إلاّ حقيرًا عند  
 أولياته، وأعادكم المعاد المُطهر، وألبسكم من أنواع اختصاصه  
 المُعلم المشهُر، فأنتم اليوم بعين العناية، بالإفصاح والكتایة، قد  
 وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية، فإن كان الملك  
 اليوم علماً يُدرس، وقوانين في قوة الحفظ تُعرس، وبضاعة بـرـضـدـ  
 التجارب تُحرس، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة، وأضمـعـيـ  
 شعوبـهـ المنسـوـبةـ، إلىـ ماـ حـزـتـمـ منـ أـشـتـاتـ الـكـمالـ، المـزـبـيةـ علىـ  
 الـآـمـالـ، فالـبـيـتـ عـلـويـ الـمـتـسـبـ، وـالـمـلـكـ بـيـنـ الـمـورـوثـ وـالـمـكـتبـ،  
 وـالـجـوـدـ يـعـرـفـ بـهـ الـوـجـودـ، وـالـدـيـنـ يـشـهـدـ بـهـ الرـكـوعـ وـالـسـجـودـ،

---

(١) البهرمان: العصفور.

والباس تعرفه التهائم والتجود، والخلق يحسده الروض المَجُود،  
والشعر يغترف من عذب نمير، ويصدق ما قال: بدِيْ، بِأَمِيرٍ وَخَتَمْ  
بِأَمِيرٍ، وإن مملوکكم حَوْمٌ مِنْ بَابِكُمْ عَلَى العَذْبِ الْبَرُودِ، فَعَاقَهُ  
الدَّهْرُ عَنِ الْوَرُودِ، وَاسْتَقْبَلَ أَفْقَهُ لِيَحْقُقَ الرَّهْضَدِ، وَلَكُنَّهُ أَخْطَأَ  
الْقَصْدَ، وَمِنْ أَخْطَأَ الْغَرْضَ أَعْادَ، وَرَجَا مِنِ الزَّمَانِ الْإِسْعَادَ، فَرِبِّمَا  
خُبِيَّ نَصِيبَ، أَوْ كَانَ مَعَ الْخَواطِيْرِ سَهْمَ مَصِيبَ، وَكَانَ يُؤْمِلْ  
صَحْبَةَ رَكَابِ الْحِجَازَ، فَانْتَقَلَتِ الْحَقِيقَةُ مِنْهُ إِلَى الْمَجَازَ، وَقَطَعَتِ  
الْقَوَاطِعُ الَّتِي لَمْ يَنْلِهَا الْحِسَابَ، وَمَنْعَتِ الْمَوَانِعُ الَّتِي خَلَصَ مِنْهَا إِلَى  
الْفَتْنَةِ الْأَنْتَسَابِ، وَمِنْ طَلَبِ الْأَيَامِ أَنْ تَجْرِيَ عَلَى افْتَرَاهِ، وَجَبَ  
الْعَمَلُ عَلَى اطْرَاهِ، فَإِنَّمَا هِيَ الْبَحْرُ الْزَّاَخِرُ، الَّذِي لَا يَدْرَكُ مِنْهُ  
الآخَرُ، وَالرِّيَاحُ مُتَغَيِّرَةٌ، وَالسَّفِينَةُ الْحَائِرَةُ، فَتَارَةٌ يَتَعَذَّرُ مِنِ الْمَرْسِيِّ  
الصَّرْفُ، وَتَارَةٌ تَقْطَعُ الْمَسَافَةَ الْبَعِيدَةَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ الطَّرْفَ، هَذَا إِنْ  
سَالَهَا عَطَبُهَا، وَأُعْفِيَ مِنِ الْوَقْدِ حَطَبُهَا، وَلَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالَهُ  
أَنْ لَقَاءَ ذَلِكَ الْمَقَامَ الْكَرِيمَ عِنْدَ الْمَمْلُوكِ تَمَامَ الْمَطْلُوبِ، مَمَنْ يَجْبَرُ  
كَسْرَ الْقُلُوبَ، فَإِنَّهُ مَمَّا انْعَقَدَ عَلَى كَمَالِ الْإِجْمَاعِ، وَصَحَّ فِي عَوَالِيِّ  
مَعَالِيهِ السَّمَاعِ، وَارْتَقَعَتِ فِي وَجْهِ مَثَالِهِ الْأَطْمَاعِ، أَخْلَاقًا هَذِبَهَا  
الْكَرْمُ الْوَضَاحُ، وَسَجْيَةُ كَلْفِ بَهَا الْكَمَالُ الْفَضَاحُ، وَحَرَصًا عَلَى  
الذَّكْرِ الْجَمِيلِ وَمَا يَتَنَافَسُ فِيهِ إِلَّا مِنْ سَمَّتْ هَمَمَهُ، وَكَرْمَتْ ذَمَمَهُ،  
وَأَلْفَتِ الْخَلْدَ رَمَمَهُ، إِذَا الْوَجُودُ سَرَابٌ، وَمَا فَوْقَ التَّرَابِ تَرَابٌ، وَلَا  
يَبْقَى إِلَّا عَمَلٌ رَاقٌ، أَوْ ذَكْرٌ بِالْجَمِيلِ يُسَطِّرُ فِي أُورَاقِ، حَسِبِمَا قَلَتِ  
مِنْ قَصِيْدَةٍ كَتَبَتِهَا عَلَى ظَهَرِ مَكْتُوبٍ مَوْضِعُ أَشَارَ بِهِ مِنْ كَانَتْ لَهُ  
طَاعَةً، فَوْفَتْ بِمَقْتَرِحِهِ اسْتِطَاعَةً:

يَمْضِي الزَّمَانُ وَكُلُّ فَانٍ ذَاهِبٌ  
إِلَّا جَمِيلُ الذَّكْرِ فَهُوَ الْبَاقِي

لم يبقَ من إيوانِ كسرى بعدَ ذا  
 لَكَ الحفلِ إلَّا الذكرُ في الأوراقِ  
 هلْ كان للسفاحِ والمنصورِ والـ  
 مهديٍ من ذكرِ على الإطلاقِ  
 أو للرشيدِ وللأميِّنِ وصُنُوهِ  
 لولا شَبَّاهَا يَرَاعِيَةُ الورَاقِ  
 رجعُ الترابِ إلى الترابِ بما اقتضى  
 فِي كُلِّ خَلْقٍ حُكْمُهُ الْخَلَاقِ  
 وقالَ من مقامَةِ لهِ في وصفِ الأندلسِ والعدوَّةِ:

«قلتُ: فمدينه سبطة، قال: عروسِ المجلِّي، وثنيةِ الصباحِ  
 الأجلِي، تبرجتْ تبرج العقيقةِ، ونظرتْ وجهها من البحرِ في المرأةِ  
 الصقيقةِ، واحتضنَ ميزانَ حسنانِها بالأعمالِ الثقيلةِ، وإذا قامتْ بيضُ  
 أسوارها، وكان جبلُ بنيونش<sup>(١)</sup> شِقَامةً أزهارها، والمنارةُ عنارةً  
 أنوارها، كيف لا ترغُب النفوسُ في جوارها، وتهيمُ الخواطِرُ بينَ  
 أنجادها وأغوارها؟ إلى المينا الفلكيةِ، والمرافقِ الفلكيةِ، والركبةِ  
 الزكيةِ، غير المتنورةِ ولا البكيةِ، ذاتِ الوقودِ الجزلِ، المعدُ للأزلِ،  
 والقصورِ المقتصورةُ على الجدِ والهزلِ، والوجوهُ الزهرُ السُّخنُ،  
 المضنوونُ بها عن المحنِ، دارُ الناشبةِ، والحاميةِ المضرمةِ للحربِ  
 المناسبةِ، والأسطولِ المرهوبِ، المحذورِ الألهوبِ، والسلاحِ  
 المكتوبِ المحسوبِ، والأثرِ المعروفِ المنسوبِ، كرسيِ الأمراءِ

(١) بنيونش: قرية إلى الغرب من سبطة.

والأشراف، والوسيطة، لخامس أقاليم البسيطة، فلا حظ لها في الانحراف، بصرة علوم اللسان، وصناعة الحُلُل الحسان، وثمرة امثال قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (سورة النحل، الآية: ٩٠) الأمينة على الاختزان، القويمة المكياج والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قواقل العصير والحرير والكتان، وكفافها السكنى ببنيونش في فصول الأزمان، وجود المساكن النبوة بأخص الأثمان، والمدفن المرحوم، غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والأثار المنبئة عن أصالة الحلوم، إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب، للغيث المصوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تُعَذُّ من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة، وتتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة، واقتاصادهم لا تلبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمدون البللة مصنّ المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وفتتهم بيلدهم فتنة الواجب بال بشير الهاجم، وراعي الجديب بالمعطر الساجم، فلا يفضلون على مدinetهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة» انتهى.

قال عند وصول سلطان الأندلس الغني بالله إلى مدينة فاس بالمغرب سنة ٧٦١ هـ وكان السلطان أبو سالم في استقباله:

سَلاَ هلْ لَدِيهَا مِنْ مُخْبَرَةِ ذَكْرٍ  
وَهَلْ أَعْشَبَ الْوَادِي وَنَمَّ بِهِ الرَّزْهَرُ  
وَهَلْ بَاكِرَ الْوَسْمَيِّ دَارَأً عَلَى الْلَّوْيِّ  
عَفَّتْ أَيْهَا إِلَّا التَّوْهُمُ وَالذَّكْرُ

بلادِي التي عاطيَتْ مشمولةَ الهوى  
بأكناها والعيشُ فيشانُ مُخضرٌ  
وجوَيِ الذي ربَى جناحي وكره  
فها أنا ذا ما لَيْ جناح ولا وكرٌ  
بَثَ بيَ لا عن جفوةٍ وملاليةٍ  
ولا نَسخَ الوصلَ الهنيءَ بها هجرٌ  
ولكنها الْذِيَا قليلٌ متاعها  
ولذاتها دأباً تزور وتَرزوَرٌ  
فمن لي بقربِ العهدِ منها ودوننا  
مَدَى طال حتى يومه عندنا شهرٌ  
ولله عينا من رأنا وللأسى  
ضرامة لَهُ في كل جانحة جمرٌ  
وقد بددت درَ الدموع يدُ النوى  
وللشوق أشجانٌ يضيقُ لها الصدر  
بكينا على النهرِ الشروبِ عشيَّةٌ  
فعادَ أجاجاً بعدنا ذلك النهرُ  
أقولُ لأظعاني وقد غالها الشرى  
وانسها الحادي وأوحشها الزجرُ  
رويدَك بعد العُشرِ يسرُ أن أبشرى  
بإنجازِ وعدِ الله، قد ذهبَ العسرُ  
ولله فيما سُرُّ غيبٍ، وربما  
أتى النفعُ من حالٍ أُريدَ بها الفرُّ

وَإِنْ تَخْنِ الْأَيَّامُ لَمْ تَخْنِ الْأَيَّامِ  
وَإِنْ يَخْذِلِ الْأَقْوَامُ لَمْ يَخْذِلِ الصَّبْرُ  
وَإِنْ عَرَكَتْ مِنِي الْخَطُوبُ مَجْرِيَاً  
نَقَابًا تَسَاوَى عَنْهُ الْحَلُوُّ وَالْمُرُّ  
فَقَدْ عَجَمَتْ عُودًا صَلِيبًا عَلَى الرَّدَى  
وَعَزْمًا كَمَا تَمْضِيَ الْمَهَيَّدَةُ الْبَشَرُ  
إِذَا أَنْتَ بِالْبَيْضَاءِ قَرَرْتَ مَنْزِلَيِّ  
فَلَا اللَّحْمُ حِلٌّ مَا حَيَتْ وَلَا الظَّهَرُ  
زَجَرْتَنَا بِإِبْرَاهِيمَ بُرْزَةً هَمُومِنَا  
فَلَمَّا رَأَيْنَا وَجْهَهُ صَدَقَ الرَّجْرُ  
بِمَتْجَبٍ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ كَلَمَا  
دَجَا الْخَطْبُ لَمْ يَكْذِبْ لِعَزْمَتِهِ فَجَرَ  
تَنَاقْلَتِ الرَّكِبَانُ طَبَبَ حَدِيشَهُ  
فَلَمَّا رَأَتِهِ صَدَقَ الْخَبَرُ الْخَبَرُ  
نَدَى لَوْ حَوَاهُ الْبَحْرُ لَذَّ مَذَاقُهُ  
وَلَمْ يَتَعْقِبْ مَذَاقُهُ أَبْدًا جَزَرُ  
وَيَأسُ غَدًا يَرْتَاعُ مِنْ خَوْفِهِ الرَّدَى  
وَتَرَزَفُ فِي أَثْوَابِهِ الْفَتَكَةُ الْبِكَرُ  
أَطَاعَتْهُ حَتَى الْعُصْمَ فِي قَنْنِ الرَّئِيْسِ  
وَهَشَتْ إِلَى تَأْمِيلِهِ الْأَنْجَمُ الرَّزْهَرُ  
فَصَدَنَاكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ عَلَى النَّوْيِ  
لِتَنْصُفَنَا مَمَا جَنَى عَبْدُكَ الدَّهَرُ

كفينا بـنـكَ الأـيـامَ عـنْ غـلـوـانـهـا  
وقد رابـنا مـنـهـا التـعـسـفُ وـالـكـبـرـ  
وعـذـنـا بـذـاكـ المـجـدـ فـاـنـصـرـمـ الرـدـيـ  
ولـذـنـا بـذـاكـ العـزـمـ فـاـنـهـزـمـ الـذـعـرـ  
ولـمـ أـتـنـا الـبـحـرـ يـرـهـبـ مـوـجـةـ  
ذـكـرـنـا نـدـاكـ الـغـمـرـ فـاـحـتـقـرـ الـبـحـرـ  
خـلـافـتـكـ الـعـظـمـىـ وـمـنـ لـمـ يـدـنـ بـهـا  
فـإـيمـانـهـ لـغـوـ وـعـرـفـائـهـ نـكـرـ  
وـوـصـفـكـ يـهـدـيـ الـمـدـحـ قـصـدـ صـوـابـهـ  
إـذـا ضـلـلـ فـيـ أـوـصـافـ مـنـ دـوـنـكـ الشـعـرـ  
دـعـتـكـ قـلـوبـ الـمـؤـمـنـينـ وـأـخـلـصـتـ  
وـقـدـ طـابـ مـنـهـا السـرـ اللـهـ وـالـجـهـرـ  
وـمـدـدـتـ إـلـىـ اللـهـ الـأـكـفـ ضـرـاءـعـةـ  
فـقـالـ لـهـنـ اللـهـ: قـدـ قـضـيـ الـأـمـرـ  
وـأـلـبـهـا النـعـمـىـ بـيـعـتـكـ التـيـ  
لـهـا الطـائـرـ الـمـيـمـونـ وـالـمـحـتـدـ الـحـرـ  
فـأـصـبـحـ ثـغـرـ التـغـرـ يـسـمـ ضـاحـكـاـ  
وـقـدـ كـانـ مـمـاـنـابـهـ لـيـسـ يـقـتـرـ  
وـأـمـئـتـ بـالـسـلـمـ الـبـلـادـ وـأـهـلـهـاـ  
فـلـاـ ظـبـةـ تـغـرـىـ وـلـاـ روـعـةـ تـعـرـوـ  
وـقـدـ كـانـ مـوـلـانـاـ أـبـوـكـ مـصـرـحـاـ  
بـأـنـكـ فـيـ أـبـنـائـهـ الـوـلـدـ الـبـرـ

وَكُنْتَ حَقِيقًا بِالخِلَافَةِ بَعْدِهِ  
عَلَى الْفَوْرِ، لَكِنَّ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرٌ  
وَأَوْحَثْتَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ هَالَةً  
أَقَامْتَ زَمَانًا لَا يَلْوَحُ بِهَا الْبَدْرُ  
فَرَدَ عَلَيْكَ اللَّهُ حَقُّكَ إِذْ قُضِيَ  
بِأَنْ تَشْمَلَ النَّعْمَى وَيَنْسَدَلَ السُّتُّرُ  
وَقَادَ إِلَيْكَ الْمَلَكَ رَفِقًا بِخَلْقِهِ  
وَقَدْ عَدَمُوا رَكْنَ الْإِمَامَةِ وَاضْطَرَّوْا  
وَزَادَكَ بِالْتَّمْحِيصِ عَزَّاً وَرَفْعَةً  
وَأَجْرًا، وَلَوْلَا السُّبُكَ مَا اغْرَى التَّبَرُّ  
وَأَنْتَ الَّذِي تُذْعَى إِذَا دَهَمَ الرَّدَى  
وَأَنْتَ الَّذِي تَرْجُى إِذَا أَخْلَفَ الْقَطْرُ  
وَأَنْتَ إِذَا جَارَ الزَّمَانَ مَحْكُمٌ  
لَكَ النَّفْضُ وَالْإِبْرَامُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرُ  
وَهَذَا ابْنُ نَصَرَ قَدْ أَتَى وَجْنَاحُهُ  
مَهِيفُّ، وَمَنْ عَلَيْكَ يُلْتَمِسُ الْجَبْرُ  
غَرِيبُ يَرْجُي مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ  
فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْفَخْرَ قَدْ جَاءَكَ الْفَخْرُ  
فُرْزُ يَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِيَعْنَى  
مَوْتَقَةً قَدْ حَلَّ عَرْوَتَهَا الْغَدْرُ  
وَمَثْلُكَ مَنْ يَرْعِي الدَّخِيلَ وَمَنْ دَعَا  
يَا لَمَرِينَ جَاءَهُ الْعَزُّ وَالنَّصْرُ

وَخُذْ يَا إِمَامَ الْحَقَّ بِالْحَقَّ ثَارَةً  
فَفِي ضَمِنٍ مَا تَأْتِي بِهِ الْعَزُّ وَالْأَجْرُ  
وَأَنْتَ لَهَا يَا نَاصِرَ الْحَقَّ فَلَتَقْنُمْ  
بِحَقَّ فَمَا زِيدُ يُرْجَى وَلَا عُمْرٌ  
فَإِنْ قِيلَ مَالٌ، مَالِكُ الدَّثْرُ وَافْرُ  
وَإِنْ قِيلَ جَيْشٌ، عَنْدَكُ العَسْكُرُ الْمَجْرُ  
يُكْفِي بِكَ الْعَادِي، وَيَحْيَا بِكَ الْهَدِي  
وَيَتَسْبِي بِكَ إِلَيْسَلَامٌ مَا هَدَمَ الْكَفَرُ  
أَعْدَهُ إِلَى أَوْطَانِهِ عَنْكَ رَاضِيَاً  
وَطَوْفَةُ نَعْمَكَ الَّتِي مَا لَهَا حَضْرُ  
وَعَاجِلٌ قُلُوبُ النَّاسِ فِيهِ بِجَبِرِهَا  
فَقَدْ صَدَهُمْ عَنْهُ التَّغْلِبُ وَالْفَهْرُ  
وَهُمْ يَرْقِبُونَ الْفَعْلَ مِنْكَ وَصَفْقَةً  
تَحَاوِلُهَا يَمْنَاكَ مَا بَعْدَهَا خُسْرُ  
مَرَأْمَكَ سَهْلٌ لَا يَؤْوِدُكَ كُلْفَةً  
سُوَى عَرْضِ مَا إِنْ لَهُ فِي الْعَلَا خَطْرُ  
وَمَا الْعَمَرُ إِلَّا زِينَةٌ مُسْتَعْنَارَةٌ  
ثُرَدٌ، وَلَكِنَّ الشَّاءَ هُوَ الْعَمَرُ  
وَمَنْ بَاعَ مَا يَفْنِي يَبَاقِ مَخْلَدٍ  
فَقَدْ أَنْجَحَ الْمَسْعَى وَقَدْ رَبَحَ التَّجْرِ  
وَمَنْ دُونَ مَا تَبْغِيهِ يَا مَلِكَ الْهَدِي  
جِيَادُ الْمَذَاكِي وَالْمَحْجَلَةُ الْفَرُ

وراء وشقر واضحات شياتها  
فأجسامها ببر وأرجلها دڑ  
وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة  
مطهمة غارت بها الأنجم الزهر  
وأند رجال من مرين مخففة  
عماهمها ييضر وأسالها سمر  
عليها من الماذي كل مقاضية  
تدافع في اعطافها اللجاج الخضر  
هم القوم إن هبوا لكشف ملمة  
فلا الملتقى صعب ولا المرتفى وعر  
إذا سلوا أعطوا وإن نوزعوا سطوا  
وإن واعدوا وفوا، إن عاهدوا بربوا  
وإن مدحوا اهتزوا ارتياحاً كأنهم  
نشاوي تمشت في معاطفهم خمر  
وإن سمعوا العوراء فروا بأنفس  
حرام على هاماتها في الوغى الفر  
وتسم ما بين الوشيج ثغورهم  
وما بين قضب الدوح يتسم الزهر  
أمولاي غافت فكرتي، وتبلدت  
طبعي، فلا طبع يعيش ولا فكر  
ولولا حنان منك داركتسي به  
وأحييتنني لم تبق عين ولا أثر

فاؤجدت مني فائتاً أئِ فائِتٍ  
 وأنشرت ميَّثاً ضمَّ أشلاءُ قبرٌ  
 ببدأت بفضلِ لِمَ أكْنَ لعظيمه  
 بأهلِ، فجعلَ اللطفُ وانفراجَ والصدرُ  
 وطَوْقَتني النعمى المضاعفةَ التي  
 يقلُّ عليها منيَ الحمدَ والشكُرُ  
 وأنت بتميم الصنائعِ كافلُ  
 إلى أن يعودَ الجاهُ والعزُّ والوفرُ  
 جراًك الذي أنسنَ مقامك عصمةً  
 يُفكَ بها عانِ وينعشُ مضطَرُ  
 إذا نحن أثنينا عليكَ بمدحنة  
 فهيهات يحصى الرملُ أو يحصرُ القطرُ  
 ولكتنا نأتي بما نستطيعه  
 ومن بذل المجهود حقَّ لَهُ العذرُ  
 وكان ابن البناء أهدى إلى لسان الدين قباقب خشب جوز وكتب  
 له بعض أبيات منها:

هاكها ضمراً مطايَا حساناً  
 نشأت في الرياض هضاً لدانَا  
 وثوت بين روضةٍ وغديرٍ  
 مرضعات من التمير لبانَا  
 لابسات من الظلال ببروداً  
 دونها القصبُ رقةً وليانَا

ثُمَّ لِمَا أَرَادَ إِكْرَامَهَا اللَّهُ  
وَسَنَّ لَهَا الْمُنْسَى وَالْأَمَانَ  
فَصَدَتْ بِبَابِكَ الْعُلَيِّ ابْتِدَارًا  
وَرَجَتْ فِي قَبُولِكَ الْإِحْسَانَ  
فَأَجَابَهُ لِسَانُ الدِّينِ قَائِلًا:

فَدَقَلَنَا جِيَادَكَ الْدُّهُمَ لِمَا  
أَنْ بَلَوْنَا مِنْهَا العَتَاقَ الْحَسَانَ  
أَقْبَلَتْ خَلْفَ كُلِّ حِجْرٍ نَبِيعَ  
خَلَعَتْ وَصْفَهَا عَلَيْهِ عَيَانًا  
فَعَنِينَا بِرَعِيهَا وَفَسْحَنَا  
فِي رَبْوَةِ الْعَلَالِ لَهَا مِيدَانًا  
وَأَرْدَنَا امْتَطَاهَا فَاتَّخَذْنَا  
مِنْ شَرَاكِ الْأَدِيمِ فِيهَا عَنَانًا  
قَدَمَتْ قَبْلَهَا كَتِيَّةٌ سَحَرَ  
مِنْ كِتَابٍ سَبَّتْ بِهِ الْأَذْهَانَ  
مِثْلَمَا تَجْنُبُ الْجِيُوشُ الْمَذَاكِيَّ  
غُدَّةً لِلْقَاءِ مَهْمَا كَانَ  
لَمْ يُرْقِ مَقْلُتَيِّي وَلَا رَاقِ قَلْبَيِّي  
كُفْلَاهَا بِسَرَاعَةٍ وَبَيَانًا  
مِنْ يَكْنُ مُهْدِيَاً فَمُثْلِكَ يَهْدِي  
لَمْ أَجِدْ لِلثَّنَاءِ عَلَيْكَ لِسَانًا

يقول لسان الدين في ترجمة ابن البناء: فاضل يروقك وقاره،  
وصقر بعده مطاره، قدم من بلده يروم اللحاق بكتاب الإنشاء وتسل  
بنظم أنيق، ونسيب في نسب الإجاده عريق، تُعرب براعته عن لسان  
ذليق، وطبع طليق، وذكاء بالأثرة خليق، وبينما هو يلحم في ذلك  
الغرض ويُسدي، ويعيد ويدي، وقد كادت وسائله أن تنفع، وليل  
رجائه أن يصبح، اغتاله الحمام، وخانته الأيام، والبقاء لله تعالى  
والدואم، توفي بالطاعون في عام واحد وخمسين وسبعمائة وستة  
دون الثلاثاء، رحمة الله تعالى؛ انتهى.

## ومن نثره:

قوله في «الروضة» في ترجمة «ضخام الفصون من شجرة السر  
المصون» ما صورته: وهي التي أفاءت الظل الظليل، وزانت المرأى  
الجميل، وتكلفت لمحاسن الشجرة الشماء بالتكفيل، وتتعدد إلى  
غضون المحبوبات، وأقسام موضوعاتها المكتوبات، وغضون  
المحبين، أصنافهم المرتبين، وغضون علامات المحبة، وشواهد  
النفوس الصَّبة، وغضون الأخبار المتنقلة، عن ذوي النفوس  
المصقلولة، وعند تعين هذه الأغصان المقسمة، كمل شكل الشجرة  
المرسمة، والسرحة الموصوفة الموسومة، ففأءات الظلال، وكرمت  
الخلال، فحيي من تفرد وتوحد، واستظل من استهدي واسترشد،  
ووقف الهائم فخطب وأنشد:

يَا سَرْخَةَ الْحَيِّ يَا مَطْوُلَ  
شَرْخَ الَّذِي يَتَشَاءِيْلُ

عندِي مقالٌ فهل مقامٌ  
تُصْغِيَنَ فِيهِ لِمَا أَقُولُ  
وَلَيْ دِيَوْنُ عَلَيْكِ حَلَثٌ  
لَوْ أَنَّهُ يَنْفَعُ الْحَلَوْنُ  
ماضٍ مِنَ الْعِيشِ كَانَ فِيهِ  
مِنْزَلَنَا ظُلْكِ الظَّالِيلُ  
زَالَ وَمَاذَا عَلَيْهِ مَاذَا  
يَا سَرَحَ لَوْ لَمْ يَكُنْ يَرْزُولُ  
حَيَا عَنِ الْمَذْنِبِ الْمَعْنَى  
مِنْبَتَكِ الْقَطْرُ وَالْقَبُولُ

وقال: فصول في المعرفة تغازل بها عيون الإشارة، إذا قصرت عن تمام المعنى ألسُنُ العبارة، والله در القائل:  
وإذا العقول تقاصرت عن مدرِكِ  
لَمْ تَكُلْ إِلَّا عَلَى أَذْوَاقِهَا  
المعرفة اختراق المراتب الحسية، والتفوس الجنسية، والعقول  
القدسية، والبروز إلى فضاء الأزل، إذا فني من لم يكن وبقي من لم  
يزل، مع عمران المراتب، ورؤبة الجائز في الواجب:  
وَمَنْ عَجِبَ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ  
وَأَسْأَلُ شَوْفَاً عَنْهُمْ وَهُمْ مَعِي

وَتَبَكِيَهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سُوَادِهَا  
وَيَشْكُو النَّوْى قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَاعِي

المعرفة مقام يألف من جمع مفروق، وأقول وشروع، وسل  
عروق، ورد مسروق، حتى يذهب الكيف والأين، ويتعين العين،  
فيجمع العدد ويحمل، وينهى السوى ومع ذلك لا يهمل:

لِعِدَادِكَ نصيَّبُ  
ولِكَ السهْمُ المصيَّبُ  
إِنَّمَا يَوْمُكَ يَوْمًا  
نِ: خصيَّبُ وعصيَّبُ

المعرفة مقام سامي المترعرج، عاطر الأرج، ينفل من السعة إلى  
الحرج، ومن الشدة إلى الفرج:

طريقك لا تخفي به إن تتبعث  
خطاك ولا يخفى مبيثك فيه  
متاغك منشور على كل خمية  
ورؤياك أمن من ترفع تيه

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها، أحسن الله عزاءها، وحقيقة  
إن لم يجعل الفراق إزاءها، كانت الغيرة جزاءها، فهي دائرة مركزها  
يجمع، ومحيطها في التفريق يطمع، يستقل الملك أجمع، ويرى من  
يرى ويسمع من يسمع:

بُغْدُ الْمَحِيطِ مِنَ الْمَحْدُودِ وَاحِدٌ  
وَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْوَجُودِ سَوَاءٌ  
الْحَقُّ يَعْرُفُ ذَاتَهُ مِنْ ذَاتِهِ  
صَحَّ الْهُوَى فَتَلَاثَتِ الْأَهْوَاءُ

المعرفة صعود ونزول، ووقف ووصول، فلا الوصول عن البداية يقطع، ولا البداية عن النهاية تمنع:

من لـه الأمـر أـجـمـعـ  
كـلـ ما شـاء يـصـنـعـ  
حـلـ القـصـدـ وـاسـتـفـ  
رـ فـلـ مـ يـقـ مـطـمـعـ

العارف في البداية يشكر الراكع والمساجد، ثم يعذر الواحد المتواجد، ثم يرجم المنكر الجاحد، فإذا انتهى وردد العدد إلى الواحد؛ قال لسان حاله:

من رأى لَسْيٍ نشيطةً  
أو علَى عينهِ أثْرَزَ  
فلهُ الحُكْمُ قَبْلَ لَهُ  
ذَهَبَ العَيْنُ وَالْأَثْرَزُ

إلى أن قال: قال الرئيس: العارف هش بش بسام، فيجل الصغير من تواضعه مثلما يجل الكبير، ويبيسط من الخامل مثلما يبسط من النبيه، ثم علل فقال: وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق، وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق، إني لأجد ريح يوسف:

لَعْنَتُ نَارِهِمْ وَقَدْ عَسَى اللَّهُ  
لِلْوَضِيَّ الْحَادِي وَحَارَ الدَّلِيلُ  
فَأَمْلَأْتُهَا وَقَلَّتْ لِصَحْبِي  
هَذِهِ النَّارُ نَارُ لَبَّيِ فَمَلَّوا

العارف شجاع، وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت،  
وجواد، وكيف لا وهو بمعزل عن صحبة الباطل، وصفاح، وكيف  
لا ونفسه أكبر من أن تحرجها زلة بشر، ونساء للأحقاد، وكيف لا  
وذكره مشغول بالحق، وقالوا: مَنْ عَرَفَ اللَّهَ تَعَالَى صَفَاهُ لِلْعِيشِ،  
وَطَابَتْ لَهُ الْحَيَاةُ، وَهَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَذَهَبَ عَنْهُ خَوْفُ الْمُخْلُوقِينَ،  
وَأَنْسَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الشبلبي: ليس لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لعبد دعوى، من عرف الله سبحانه انقطع، بل خرص وانقمع، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك؛ انتهى.

وقال في بعض تراجم الروضة: الفرع الصاعد إلى الهواء، على خط الاستواء، من رأس العمود القائم، إلى متهى الوجود الدائم، ويشتمل على قشر لطيف، وجرم شريف، وأفنان ذات ألوان، قنوان وغير قنوان، وطلع نضيد، وجَنَّى سعيد، فالقشر الحدود والرسوم، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسم، والفنون التي يقوم عليها والعلوم، والجرم ظاهر الخلق المقسم، وعلاجه كما تعالج الجسوم، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم، وقلبه الرياضة والغضون المقامات فيها المقام المعلوم، ومادتها السلوك الذي بتدریج غذائه تبلغ الفنان والورقات ما تروم، والزهرات اللوانع والطوالع والبواه التي لها الهجوم، والواردات التي تدوم أو لا تدوم، ثم الجنى وهو الولاية التي كان الغارس عليها يحوم؛ انتهى.

ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور، وقد ألم بذكر ذلك في

«نفافة الجراب» إذ قال: وشاهدت بجبل هنّاتة محل وفاة السلطان المقدّس أمير المسلمين أبي الحسن رحمة الله تعالى، حيث أصابه طارق الأجل، الذي فصل الخطة، وأصمت الدعوة، ورفع المنازعه، وعايته مرفعاً عن الابتذال بالسكنى مفترشاً بالحصباء، مقصوداً بالابتهاج والدعاء، فلم يبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت:

يَا حَسْنَهَا مِنْ أَرْبُعِ وَدِيَارٍ  
أَضْحَثَ لِبَاغِي الْأَمْنِ دَارَ قَرَارٍ  
وَجَبَالٌ عَزٌّ لَا تَذَلُّ أَنْوَفُهَا  
إِلَّا لَعْزَ السَّوَاحِدِ الْقَهَّارِ  
وَمَقْرُّ تَوْحِيدِ وَأَسْنَ خَلَافَةِ  
أَثَارُهَا تُبَشِّي عَيْنَ الْأَخْبَارِ  
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ أَنْهَارَ النَّدِي  
تَجْرِي بِهَا فِي جَمْلَةِ الْأَنْهَارِ  
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّصَ أَنوارَ الْحَجَى  
تَلْتَاخُ فِي قُنْبَنِ وَفِي أَحْجَارِ  
مَحْثُ جَوَانِيهَا الْبَرُودُ، وَلَنْ تَكُنْ  
شَبَّثَتْ بِهَا الْأَعْدَاءُ جَذْوَةَ نَارٍ  
هَذَّثَ بِنَاهَا فِي سَيْلٍ وَفَانِهَا  
فَكَانَهَا صَرْعَى بِغَيْرِ غُقَارٍ

لما توغدَها على المجد العِدا  
رضيَتْ بعِيْثِ النَّارِ لَا بالعَارِ  
عمرَث بِجَلَّةِ عَامِرٍ وَأَعْزَهَا  
عبدُ الْعَبِيزِ بِمَرْهَفِ بَشَارِ  
فرسَ رَهَانِ أَحْرَزا قَصْبَ النَّدَى  
وَالْبَاسَ فِي طَلْقٍ وَفِي مَضْمَارِ  
وَرِثَا عَنِ التَّذْبِيجِ الْكَبِيرِ أَيْهُما  
مَخْضُ الْوَفَاءِ وَرَفْعَةِ الْمَقْدَارِ  
وَكَذَا الفَرْوُعُ تَطْوُلُ وَهِي شَبِيهَةُ  
بِالْأَصْلِ فِي وَرْقٍ وَفِي أَثْمَارِ  
أَزْرَثْ وَجْهُ الصَّيْدِ مِنْ هَتَّاتِهِ  
فِي جَوَاهِرَةِ بَمْطَالِعِ الْأَقْمَارِ  
لَلَّهِ أَئِ قَبْيلَةٌ تَرَكَتْ لَهَا إِلَّا  
نَظَرَاءُ دُعَوَى الْفَخْرِ يَوْمَ فَخَارِ  
نَصَرَتْ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَمَلَكُهُ  
قَدْ أَسْلَمَتْهُ عَزَائِيمُ الْأَنْصَارِ  
وارثُ عَلَيَا عِنْدَمَا ذَهَبَ الرَّدَى  
وَالرَّوْعُ بِالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ  
وَتَخَادَلَ الْجَيْشُ اللَّهَامُ وَأَصْبَحَ الـ  
أَبْطَالُ يَيْنَ تَقَاعِيدِ وَفَرَارِ  
كَفَرَتْ صَنَاعَةُ فِيمَنَمْ دَارَهَا  
مَسْتَظْهَرًا مِنْهَا بَعْزَ جَوَارِ

وأقامَ يَمْنَ ظهورها لا يَتَّقِي  
وَقَعَ الرُّدَى وقد ارتمى بشرارِ  
فَكَانَهَا الْأَنْصَارُ لَمَّا أَنْسَثَ  
فِيمَا تَقْدَمَ غَرْبَةَ الْمُخْتَارِ  
لَمَّا غَدَا لَحْظَا وَهُمْ أَجْفَانُهُ  
نَابَثُ شَفَارُهُمْ عَنِ الْأَشْفَارِ  
حَتَّى دُعَاءُ اللَّهُ يَمْنَ بَيْوَتِهِمْ  
فَأَجَابَ مُمْثَلًا لَامْرِ الْبَارِي  
لَوْ كَانَ يَمْنُعُ مِنْ فَضَاءِ اللهِ مَا  
خَلَصَتْ إِلَيْهِ نِرَافِدُ الْأَقْدَارِ  
قَدْ كَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَكْافِيَ بَعْضُ مَا  
أُولُوُ لَوْلَا قَاطَعُ الْأَعْمَارِ  
مَا كَانَ يَقْنَعُهُ لَوْ امْتَدَّ الْمَدِي  
إِلَّا الْقِيَامُ بِحَقِّهِ مَنْ دَارِ  
فَيُعِيدُ ذَلِكَ الْمَاءَ ذَائِبَ فَضْيَةً  
وَيُعِيدُ ذَلِكَ التَّرْبَ ذَوَبَ نَضَارِ  
حَتَّى تَفْوزَ عَلَى النَّوْى أَوْطَانَهَا  
مِنْ مَلْكِهِ بِجَلَائِلِ الْأَوْطَارِ  
حَتَّى يَلْسُوحَ عَلَى وِجْهِهِ وِجْهَهُمْ  
أَثْرُ الْعَنَابِيَّةِ سَاطِعَ الْأَنْوَارِ  
وَيَسْوَغَ الْأَمْلَ الْقَصْيَّ كَرَامَهَا  
مِنْ غَيْرِ مَا ثَبَّى وَلَا اسْتَعْصَارِ

ما كان يرضي الشمس أو بدر الدرجى  
عَنْ دِرْهَمٍ فِيهِمْ وَلَا دِينارٍ  
أَوْ أَنْ يَتَوَجَّ أَوْ يَقْلُدَ هَامَهَا  
وَنَحْسُورُهَا بِأَهْلَةٍ وَدَرَارِي  
حَقٌّ عَلَى الْمَوْلَى ابْنِهِ إِشَارُ مَا  
بِذَلِوَهُ مِنْ نَصْرٍ وَمِنْ إِشَارِ  
فَلَمْ تَلِهَا ذِخْرَ الْجَزَاءُ، وَمِثْلُهُ  
مَنْ لَا يُضِيعُ صَنَائِعَ الْأَحْرَارِ  
وَهُوَ الَّذِي يَقْضِي الْدِيَوْنَ وَبِرْهُ  
يَرْضِيَ فِي عَلَيْنِ وَفِي إِسْرَارِ  
حَتَّى تَحْجَجَ مَحْلَةً رَفَعُوا بِهَا  
عَلَمَ الْوَفَاءِ لِأَعْنَى النَّظَارِ  
فَيَصِيرُ مِنْهَا الْبَيْتُ بِيَتَانِيَا  
لِلطَّائِفَيْنَ إِلَيْهِ أَيَّ بَدَارِ  
تَغْنِي قُلُوبُ الْقَوْمِ عَنْ هَدِيَّ بِهِ  
وَدَمْوَعُهُمْ تَكْفِي لِرَمْيِ جَمَارِ  
حُيَّتِ مَنْ دَارَ تَكْفُلَ سَعِيَهَا إِلَى  
مُحَمَّدٍ بِالرِّزْلِفِيِّ وَعَقْبَسِ الدَّارِ  
وَضَقَّتْ عَلَيْكِ مَنْ إِلَاهٌ عَنْيَا  
مَا كَرَّ لَيْلٌ فِيكِ إِثْرَ نَهَارٍ  
وَمَمَا اشْتَمِلَ عَلَى نَظَمِ لِسانِ الدِّينِ وَنَثَرَهُ مَا كَتَبَ بِهِ مِنْ سَلاَ إِلَى  
سُلْطَانِهِ الْغَنِيِّ بِاللهِ تَعَالَى، وَقَدْ بَلَغَهُ مَا كَانَ مِنْ صَنْعِ اللهِ سَبَحَانَهُ لَهُ

وعودته إلى سلطانه:

اهنيأ بما خُوّلت من رفعـة الشـان  
وإن كـرـه الـبـاغـي وإن رـغـمـ الشـانـي  
وأن خـصـكـ الرـخـمـنـ جـلـ جـلالـهـ  
بـمعـجـزـةـ منـسـوبـةـ لـسـلـيمـانـ  
أـغـارـ عـلـىـ كـرـسيـهـ بـعـضـ جـنـهـ  
فـالـقـتـ لـهـ الدـنـيـاـ مـقـالـدـ إـذـعـانـ  
فـلـمـ رـآـهـاـ فـتـنـةـ خـرـ سـاجـداـ  
وـقـالـ إـلـهـيـ اـمـنـنـ عـلـىـ بـغـرـانـ  
وـهـبـ لـيـ مـلـكـ بـعـدـهاـ لـيـسـ يـنـبـغـيـ  
تـقـلـدـهـ بـعـدـيـ لـإـنـسـنـ وـلـاـ جـانـ  
فـاتـاءـ لـقـاـ أـنـ أـجـابـ دـعـاءـهـ  
مـنـ العـزـ مـالـمـ يـؤـتـ يـوـمـ إـلـانـسـانـ  
وـإـنـ كـانـ هـذـاـ الـأـمـرـ فـيـ الـدـهـرـ مـفـرـدـاـ  
فـأـنـتـ لـهـ لـمـاـ اـقـتـدـيـتـ بـهـ الشـانـيـ  
فـقـاـيلـ صـنـيـعـ اللـهـ بـالـشـكـرـ وـاسـتـعـنـ  
بـهـ وـأـجـزـ إـحـسـانـ إـلـهـ بـإـحـسـانـ  
وـحـقـ الـذـيـ سـمـاكـ بـاسـمـ مـحـمـدـ  
لـوـ آـنـ الصـبـاـ قـدـ عـادـ مـنـ بـرـيـعـانـ  
لـمـاـ بـلـغـ النـعـمـىـ عـلـيـكـ سـرـورـهـ  
أـلـيـةـ وـافـ لـاـ أـلـيـةـ خـوـانـ  
فـإـنـيـ أـنـاـ الـعـبـدـ الـصـرـيـعـ أـنـسـابـهـ  
كـمـ أـنـتـ مـوـلـايـ الـعـزـيزـ وـسـلـطـانـيـ

## إذا كنتَ في عزٍّ وملكٍ وغبطه فقد نلتُ أوطاري وراجعتُ أوطاني

«مولاي الذي شأنه عَجَب، والإيمان بعنادِ الله تعالى به قد وَجَب، وعزه أظهره مَنْ برداء العزة احتجب، إذا كانت الغاية لا تُدرك، فأولى أن تسلم وتترك، ومنه الله تعالى عليك ليست مما يشرح، قد عقل العقل فما يبرح، وقيد اللسان فما يرتعي في مجال العبارة ولا يسرح، اللهم ألهمنا على هذه النعمة شكرًا ترضاه، وإمدادًا من لدنك نتقاضاه، يا الله يا الله. سعود أنارت بعد أ Fowler شهابها، وحياة كرَّت بعد ذهابها، وأحباب اجتمعـت بعد فراقها، وأوطان دَنَت بعد بُعد شامها من عراقها، وأعداء أذهب الله تعالى رَسْمـهم ومحاهـ، وبُغـاة أدار عليهم الدهر رحـاهـ، وعباد أعطـوا من كشف الغمـ ما سـأـلـوهـ، ونازـحـونـ لو سـنـلـواـ فيـ إـتـاحـةـ القـرـبـ بماـ فيـ أـرـمـاقـهـمـ لـبـذـلـوـهـ، وسبـحـانـ الذـيـ يـقـولـ «ـوـلـوـ أـنـ كـتـبـنـاـ عـلـيـهـمـ أـنـ اـفـتـلـوـ أـنـفـسـكـمـ أـوـ اـخـرـجـوـاـ مـنـ دـيـارـكـمـ مـاـ فـعـلـوـهـ»ـ (سورة النساء، الآية: ٦٦)ـ فـلـيـهـنـ الإـسـلـامـ بـيـاضـ وـجـهـ بـعـدـ اـسـوـدـادـهـ، وـتـغلـبـ إـيـالـةـ مـنـ لاـ يـؤـمـنـ بـالـلـهـ وـلـاـ بـالـيـومـ الـآـخـرـ عـلـىـ بـلـادـهـ، وـعـودـةـ الـمـلـكـ الـمـظـلـومـ إـلـىـ مـعـتـادـهـ، وـاسـتـوـاءـ الـحـقـ النـائـيـ جـنـبـهـ فـوـقـ مـهـادـهـ، وـرـدـ الـإـرـثـ المـغـصـوبـ إـلـىـ مـسـتـحـقـهـ عـنـ آـبـائـهـ وـأـجـدـادـهـ. وـالـحـمـدـ لـلـهـ الـذـيـ غـسلـ عـنـ وـجـهـ الـأـقـمـةـ الـحـنـيفـيـةـ الـعـارـ، وـأـنـقـذـ عـهـدـتهاـ وـقـدـ مـلـكـهاـ الـذـعـارـ، فـرـدـ الـمـعـارـ، وـأـعـيدـ الشـعـارـ، نـحـمدـكـ اللـهـمـ حـمـداـ يـلـيقـ بـقـدـسـكـ، لـاـ بـلـ لـاـ نـحـصـيـ ثـنـاءـ عـلـيـكـ أـنـتـ كـمـ أـثـيـتـ عـلـىـ نـفـسـكـ»ـ.

«والعبد يا مولاي قد بهرت عَقْلَهُ آلاء الله تعالى قبلك، فالتفكير

جائيل واللسان ساكت، والعقل ذاهل والطرف باهت، فإن أقام رَسْمًا للمخاطبة فعلم مرح وركض، وطُرس هز جناح الارتياح ونفض، ليس هذا المَرَام مما يرام، ولا هذه العناية التي تحار فيها الأفهام، مما تُضمي غرضه السهام، فسأل الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين، وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين، حتى لا يغره السراب الخادع، والدهر المرغم للأئوف الجادع، ولا يرى في الوجود غير الله من صانع، ولا معِظ ولا مانع، ويتمتع بالعز الجديد، ويوفقه للنظر السديد، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد، والسلام» انتهى.

قال لسان الدين في «الإحاطة» عند ترجمة نثره:

وأما الشر فبحر زاخر، ومدى طوله مستاخر، وإنك لم يفخر عليك كفاخر، وقد مرّ منه في تصاعيف هذا الديوان كثير، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير؛ انتهى.

١ - فمن ذلك قوله في غرض التحميد مما افتح به الكتاب في التاريخ المتضمن دولة بنى نصر: «الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودول الأملأك كأنجم الأخلاق، تطلعها من المشارق نيرة، وتلعب بها مستقيمة أو متჩيرة، ثم تذهب بها غائرة متغيرة، السائق عَجل، وطبع الوجود مرتجل، والحي من الموت وجَل، والدهر لا معترد ولا خَجل، بينما ترى الدَّست عظيم الزحام، والموكب شديد الالتحام، والوزعة تشير، والأبواب يقرعها البشير، والسرور قد شمل الأهل والعشير، والأطراف تلشمها الأشراف، والطاعة يشهرها الاعتراف، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها

الإسراف، والرایات تُغَدِّد، والأعطیات تُنْقَد، إذ رأيت الأبواب  
مهجورة، والدسوت لا مؤئلة ولا مزورة، والحرکات قد سكنت،  
وأيدي الإدالة قد تمكنت، فكأنما لم يسمِّ سامر، ولا نهى ناه ولا  
أمر أمر، ما أشبة الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ  
الَّذِي نَاهَنَا كَمَاءً أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا  
تَذْرُوهُ الرِّياح﴾ (سورة الكهف، الآية: ٤٥).

٢ - ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحضر على الجهاد:  
﴿أَيُّهَا النَّاسُ رَحْمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، إِخْوَانَكُمُ الْمُسْلِمُونَ بِالْأَنْدَلُسِ قَدْ  
ذَهَمَ الْعَدُوُّ فَصَمَّهُ اللَّهُ تَعَالَى سَاحَتَهُمْ، وَرَامَ الْكُفْرَ خَذَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى  
اسْتِبَاحَتَهُمْ، وَزَحْفَتْ أَحْزَابُ الطَّوَاغِيْتِ إِلَيْهِمْ، وَمَدَ الصَّلِيبَ ذَرَاعِيهِ  
عَلَيْهِمْ، وَأَيْدِيْكُمْ بَعْزَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَفْوَى، فَلَا تَخْفَرُوهُ، وَسَبِيلُ الرُّشْدِ  
قَدْ وَضَعَ فَلْتَبْصِرُوهُ، الْجَهَادُ الْجَهَادُ فَقَدْ تَعَيَّنَ، الْجَازُ الْجَازُ فَقَدْ قَرَرَ  
الشَّرْعُ حَقَّهُ وَبَيَّنَ، اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِسْلَامِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، اللَّهُ اللَّهُ فِي الْمَسَاجِدِ الْمَعْمُورَةِ بِذِكْرِ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي  
وَطْنِ الْجَهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَدْ اسْتَغَاثَ بِكُمُ الدِّينَ فَأَغْيَيْتُهُ، قَدْ تَأَكَّدَ  
عَهْدُ اللَّهِ وَحَاشَاكُمْ أَنْ تَنْكِثُوهُ، أَعْيَنَا إِخْوَانَكُمْ بِمَا أَمْكَنَ مِنَ الْإِعَانَةِ  
أَعَانَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ الشَّدَائِدِ، جَدَّدُوا عَوَانِدَ الْخَيْرِ يَصْلِلُ اللَّهُ تَعَالَى  
لَكُمْ جَمِيلَ الْعَوَائِدِ، حَسِّلُوا رَحْمَ الْكَلْمَةِ، وَاسْوُا بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ  
تَلْكَ الطَّوَافِ الْمُسْلِمَةُ. كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَيْدِيْكُمْ، وَالسَّنَةُ الْآيَاتُ  
تَنَادِيْكُمْ، وَسَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَائِمَةٌ فِيْكُمْ، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ فِيْهِ:  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ﴾ (سورة الصاف،  
الآية: ١٠) وممَّا صَحَّ عَنْهُ قَوْلُهُ «مَنْ اغْبَرَتْ قَدْمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
حَرَمَهُمَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ» «لَا يَجْتَمِعُ غَبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمُ»

«من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا»؛ أدركوا رمّق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده:

ما زا يكون جوابكم لنبيكم  
وطريق هذ العذر غير مهدٍ  
إن قال لم فرطْمُ في أمتى  
وتركتم وهم للعدو المعتمدي  
تالله لو أن العقوبة لم تخف  
لکفى العيَا من وجه ذاك السيدِ

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحرير والضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبابك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً». انتهى.

ولما استقر (ابن خلدون) بالحضررة جرت بيني وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه وأوضح الأدب مذاهبه، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تسرّى جارية رومية اسمها هند صبيحة الابتلاء بها:

أوصيك بالشيخ أبي بكره  
لا تأمنن في حالة مكرة  
واجتنب الشك إذا جئته  
جنبك الرحمن ما نكرة

سيدني لا زلت تتصف بالوالع، بين الخلاخل والدمالج،  
 وتركتها فوقها ركض الهمالج، أخبرني كيف كانت الحال، وهل  
 حُطت بالقاع من خير البقاع الرحال، وأحکم بمرود المراودة  
 الاكتحال، وارتفع بالسقيا الإمحال، وصح الانتحال، وصح شخص  
 الحق وذهب المحال، وقد طولعت بكل بشرى وبشر، وزفت هند  
 منك إلى بشر، فلله من عشية، تمنت من الربيع بفرش مؤشية،  
 وأبدلت منها أي آساد وحشية، وقد أقبل ظبي الكناس، من  
 الديناس، ومطوق الحمام، من الحمام، وقد حسنَت الوجه الجميلَ  
 التظرية، وأزيلت عن الفرع الأثيث الأبرية<sup>(١)</sup>، وصقلت الخدود  
 فكأنها الأمرية<sup>(٢)</sup>، وسلطَ الدلّك على الجلود، وأغرت النورة  
 بالشعر المولود، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس، ولا تزالها  
 البنان الخامس، والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء التعميم،  
 والمسواك يلبي من ثنية التعميم، والقلب يرمي من الكف الرقيق<sup>(٣)</sup>  
 بالمقدح المقيم، وينظر إلى نجوم الوشم فيقول: إني سقيم، وقد  
 تفتح ورد الخفر، وحكم لزنجي الصفيرة بالظفر، واتصف أمير  
 الحسن بالصدود المغتفر، ورش بماء الطيب، ثم أعلق بياله دخان  
 العود الرطيب، وأقبلت الغادة، يهديها اليُمن وتزفها السعادة، فهي  
 تمضي على استحياء، وقد ذاع طيب الريأ وراق حسن المحيأ، حتى  
 إذا نزع الخف، وقبّلت الأكف، وصخب المزمار وتجاوب الدف،

(١) لعل الأبرية جمع برى بمعنى التراب.

(٢) الأمرية: جمع مراة.

(٣) الرقيق: العزيز.

وذاع الأرج، وارتفع الحرج، وتجوز اللوى والمنعرج، ونزل على  
بشر بزيارة هند الفرج، اهتزت الأرض وربت، وعوصبـت الطيـاع  
البشرية فأبـت، والله در القائل<sup>(١)</sup> :

ومرـت فـقالـت: متـى نـلـقـي؟  
فـهـشـ اـشـيـاقـاـ إـلـيـهاـ الـخـيـثـ  
وكـادـ يـمـزـقـ سـرـبـالـةـ  
فـقـلـت: إـلـيـكـ يـسـاقـ الـحـدـيـثـ

فلما انـسـدـلـ جـنـحـ الـظـلـامـ، وـانـتـصـفـتـ منـ غـرـيمـ العـشـاءـ الـأـخـيـرـةـ  
فـرـيـضـةـ السـلـامـ، وـخـاطـتـ خـيوـطـ الـمـنـامـ عـيـونـ الـأـنـامـ، تـأـئـىـ دـنـوـ  
الـجـلـسـةـ، وـمـارـقـةـ الـخـلـسـةـ، ثـمـ عـضـةـ النـهـدـ، وـقـبـلـةـ الـفـمـ وـالـخـدـ،  
وـإـرـسـالـ الـبـدـ منـ النـجـدـ إـلـىـ الـوـهـدـ، وـكـانـتـ إـلـمـالـةـ الـقـلـيلـةـ قـبـلـ المـدـ،  
ثـمـ إـلـفـاضـةـ فـيـمـاـ يـغـبـطـ وـيـرـغـبـ، ثـمـ إـلـمـاطـةـ لـمـاـ يـشـوشـ وـيـشـغـبـ، ثـمـ  
إـعـمالـ الـمـسـيرـ، إـلـىـ السـرـيرـ<sup>(٢)</sup> :

وـصـرـنـاـ إـلـىـ الـحـسـنـىـ، وـرـقـ كـلـامـنـاـ  
وـرـضـتـ فـذـلـىـ صـبـبـةـ أـيـ إـذـلـ

وـهـذـاـ بـعـدـ مـنـازـعـةـ لـلـأـطـوـاقـ يـسـيـرـةـ، يـرـاـهـاـ الغـيدـ مـنـ حـسـنـ السـيـرـةـ،  
ثـمـ شـرـعـ فـيـ التـكـةـ، وـنـزـعـ الشـكـةـ، وـتـهـيـةـ الـأـرـضـ العـزـازـ<sup>(٣)</sup> عـمـلـ  
الـسـكـةـ، ثـمـ كـانـ الـوـحـيـ وـالـاسـتـعـجالـ، وـحـمـيـ الـوـطـيـسـ وـالـمـجـالـ،

(١) يـنـسـبـ الـبـيـانـ إـلـىـ بـشـارـ. وـهـمـاـ فـيـ دـيـوانـهـ: ٢٢٢.

(٢) الـبـيـتـ لـأـمـرـىـ الـقـيـسـ، دـيـوانـهـ: ١٤١.

(٣) العـزـازـ: الـصـلـبةـ.

وعلا الجزع الخفيف، وتضافرت الخصور الهيف، وتشاطر الطبع العفيف، وتواتر التقبيل، وكان الأخذ الوبيل، وامتاز الأنوك من النبيل، ومنها جائز على الله قصد السبيل، فيما لها من نعم متداركة، ونقوس في سبيل القحة متهاكلة، ونفس يقطع حروف الحلق، وسبحان الذي يزيد في الخلق، وعظمت الممانعة، وكثرت بالبد المصانعة، وطال التراوغ والتزاور، وشكى التحاور، وهناك تختلف الأحوال، وتعظم الأهوال، وتخسر أو تربح الأموال، فمن عصاً تنقلب ثعباناً مبيناً، ونونة<sup>(١)</sup> تصير تنيناً، وبطل لم يهمله المعترك الهائل، والوهم الزائل، ولا حال بينه وبين قرنه الحائل، فتعدى فتكة السُّلِيك إلى فتكة البراض، وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج في الاعتراض<sup>(٢)</sup>، ثم شق الصف وقد خضب الكف، بعد أن كان يصيب البوسي بطعنته، ويبيوه بمقت الله ولعنته:

طعنـت ابن عبد الله طـعـنةـ شـائـر  
لـهـ نـفـذـ لـوـلاـ الشـعـاعـ أـضـاءـهـاـ<sup>(٣)</sup>

وهناك هدا القتال، وسكن الخبال، ووقع المتوقع فاستراح البال، وتشوف إلى مذهب الشتوية من لم يكن للتوحيد بمبال، وكثير السؤال على المبال، بما بال، وجعل الجريع يقول وقد نظر إلى دمه، يسيل على قدمه:

(١) النونة: السمكة.

(٢) الاعتراض: استباحة القتل.

(٣) البيت لقيس بن الخطيب، ديوانه: ٧.

إني له عن دمي المسفوك معتذر  
أقول حَمْلَتُهُ فِي سُفْكِهِ تَعْبًا

ومن سنان عاد عناناً، وشجاع صار جباناً، كلما شابتة شابة  
رببه، أدخل يده في جيبيه، فانجحمرت الحياة، وماتت الغريزة الحياة،  
وهناك يزيف البصر، ويخذل المنتصر، ويسلم الأشر، ويُغلب  
الحصر، ويجهّف اللعب، ويظهر العاب<sup>(١)</sup>، ويحقق الفوزاد، ويكتبو  
الجواد، ويُسْلِل العرق، ويُشْتَدُّ الْكَرْبُ وَالْأَرْقُ، ويُنْشَا في محل  
الأمن الفرق، ويدرك فرعون الغرق، ويقوى اللجاج ويعظم الخرق،  
فلا تزيد الحال إلا شدة، ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلا ردة:  
إذا لم يكن عونٌ من الله للفتنى  
فأول ما يجني عليه اجتهاده

فكم مغرى بطول اللبث، وهو من الخبر، يؤمّل الكراة، ليزيل  
المعرّة، ويستنصر الخيال، ويعمل باليد الاحتيال:  
إنك لا تشکرو إلَى مصْمَتٍ  
فاصبر على الحمل الثقيل أو مت<sup>(٢)</sup>

---

(١) العاب: العيب.

(٢) المصمت: الذي يهتم ويعتنى.

## **قائمة المراجع والمصادر:**

للمقرري

فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب  
دار صادر بيروت ١٩٦٨

الدكتور عبد العزيز عتيق

الأدب العربي في الأندلس  
دار النهضة العربية بيروت ط ٢/١٩٧٦

للزكلي

الأعلام  
دار العلم للملايين بيروت ط ٧/١٩٨٦

الدكتور إحسان عباس

تاريخ الأدب الأندلسي  
دار الثقافة بيروت ط ٥/١٩٧٨

الدكتور شوقي ضيف

الفن ومذاهبـ في التـرـ العـربـيـ  
دار المعارف بمصر ط ٨

الدكتور شوقي ضيف

الفن ومذاهبـ في الشـعـرـ العـربـيـ  
دار المعارف بمصر ط ١٠

لسان الدين ابن الخطيب

أعمال الأعلام

دار المكشوف بيروت ط ٢/١٩٥٦

ابن خلدون

تاريخ ابن خلدون

دار الفكر العربي بيروت

للقلقشندى

صبح الأعشى

دار الكتب العلمية بيروت ط ١/١٩٨٩



رابط بديل  
lisanerab.com

مَكْتَبَةُ

لِسَانُ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



twitter

مكتبة لسان العرب



facebook



mكتبة لسان العرب



# الفهرس

٣	.....	المقدمة
<b>الفصل الأول</b>		
البيئة والعصر الأندلسيان		
٥	.....	صفة الأندلس
٦	.....	فتح الأندلس
٧	.....	الأحوال السياسية
١٢	.....	نظام الحكم في الأندلس
١٣	.....	الحياة الاجتماعية
١٤	.....	الأحوال الاقتصادية وتأثيرها
١٦	.....	الحال الثقافية
<b>الفصل الثاني</b>		
لسان الدين ابن الخطيب، حياته وسيرته		
٢٨	.....	مولده ونشأته
٣٣	.....	أعداؤه
٣٥	.....	أشياخه
٣٨	.....	مؤلفاته
٤٢	.....	أولاده
٤٤	.....	تلاميذه
<b>الفصل الثالث</b>		
شعره وموشحاته		
٤٧	.....	أولاً: الشعر

٤٨	المدح
٦١	الهجاء
٦٤	الوصف
٦٧	العتاب
٦٨	الرثاء
٦٩	التهانى
٧٢	الغزل
٧٥	الزهد
٧٩	أغراض متفرقة
٨٠	ثانياً: المoshحات

## الفصل الرابع

### نشره

٨٧	١ - النثر قبل لسان الدين
٨٩	٢ - نثر لسان الدين
٩٠	أ - رسائله
٩٤	ب - المقامات
٩٩	ج - مواعظه وتصوفه
١١٠	الخاتمة
١١١	مختارات شعرية
١٤٧	من نثره
١٦٥	قائمة المراجع والمصادر